من أسرار النظم القرآني

آيات وعبر

تأليف
أ.د/ محمد عبدالله سعادة
أستاذ اللغويات
بجامعة الأزهر





" فاتحة كل خير وتمام كل نعمة "

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . وخص رسوله بكتاب نزل بأفصح لسان وأحسن بيان ، وتحدى به قوما ملكوا ناصية الفصاحة وفنون الكلام ، وعجزوا عن الإتيان بمثله أو آية منه ، وبهر القرآن هؤلاء بحسن نظمه وترتيبه ، وإحكام أساليبه وما فيه من حجة وبرهان .

وكتاب الله تعالى بحر زاخر باللؤلؤ والمرجان . مهما قرأه القارئ وأعاده فسوف ينال منه عجائب لا تنقضى ، ويفهم كل قارئ منه بمقدار ما يفتح الله عليه .

ومن هنا كانت علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة ضرورية لفهم كتاب الله ، والوقوف على أسرار معجزته الخالدة وكنت عندما أقرأ آية من كتابه وأجد لها شبيها فى موضع آخر سواء باللفظ نفسه أو تغيير لفظ منها أو تقديم شيئ منها وتأخير آخر أسأل : لم كان ذلك ؟ أو ما السر وراء ذلك . هل هو تنوع فى الأساليب ، وتفنن فى الكلام أو لغرض آخر . فلقد يتكرر مجئ الآيات فى القصة الواحدة من قصص القرآن فى ألفاظ متشابهة وصور متعددة ، وفواصل شتى ، وأساليب متنوعة مع اتحاد المعنى . ويقصد بذلك الإعجاز اللغوي بالتصرف فى الأسلوب بنقله من مكان إلى مكان فى القصة الواحدة لغرض بلاغي لا يدركه إلا أصحاب اللغة : فقد يأتى اللفظ

الواحد مكررا ، ولكنه فى كل موضع له معنى يختلف عما فى الموضع الآخر .

ومثل ذلك لفظ "الحرمة" فهى : رحمة :

١- بمعنى الإسلام فى قوله تعالى : {يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاء ..} .

٢- بمعنى الإيمان فى قوله : {.. وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ ..} .

٣- بمعنى الجنة فى قوله : {.. فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} .

٤- بمعنى المطر فى قوله : {.. بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ..} .

٥- بمعنى الرزق فى قوله : {.. خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ..} .

٦- بمعنى المغفرة فى قوله : {.. كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ..} .

وقد تجد لفظا مقدما على آخر فى آية ، مثل : " والنصارى والصابئين" فى البقرة ، وفى سورة الحج " والصابئون والنصارى" ومن ذلك : تقديماللهو على اللعب فى آيات ، وفى غيرها أو تقديم الضر على النفع . وكذلك تقديم السمع على البصر .

وقد يأتى اللفظ مفردا فى موضع وجمعا فى موضع آخر . مثل : (معدودة) ، و(معدودات) . والسماء والسماوات .

أو تأتى الآية مكررة مع تبديل لفظ واحد فيها .

أو مجئ اللفظ معرفا فى آية ونكرة فى آية أخرى مثل : {.. رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ..} .

ومن أجل ذلك أردت أن أكتب هذه النظرات لبيان روعة الأسلوب القرآني . ولذا وضعت أمامى علوم تفسير القرآن ومنها تفسير آيات

الأحكام ، وتفسير مشكل القرآن ، وتفسير المحكم والمتشابه ، وتفسير الوجوه والنظائر ، وهناك كتاب :" كشف المعانى فى المتشابه من المثاني" تأليف بدر الدين بن جماعه المتوفى سنة ٧٣٣هـ ، وكذلك البرهان فى علوم القرآن للزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ وكذلك كتاب : الإتقان فى علوم القرآن للسيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ.

ولـــذا كان فهم أسرار القرآن يتوقف على فهم علوم اللغة من النحو والصرف والبلاغة ؛ لبيان دلالات الألفاظ وموقعها فى الجملة ، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – "فمعرفة العربية التى خوطبنا بها يعين على أن نفقه مراد الله ورسوله بكلامه ، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعانى ، فإن عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب ؛ فإنهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يّدعون أنه دال عليه ، ولا يكون الأمر كذلك ".[1]

وفضل القرآن لا يعرفه إلا من عرف كلام العرب وعلم العربية ، وعلم البيان ، ونظر فى هذا الكتاب المعجز نظرة تأمل وكشف ما جاء به من العجب العجاب ، ويدرك ذلك أيضاً كل من له عين بصيرة ، وذوق دقيق ، وليس كل من اشتغل بالنحو واللغة والفقه والتفسير كان من اهل الذوق ؛ لأن الذوق فى الأصل ملكة فطرية ، لكن اكتسابها ممكن بالتدبر والتأمل ، والتعب فى كشف اللطائف واستيضاح الخفايا ، وكثرة المطالعات وطول

(١) الإيمان ١١١ .

المراجعات وأن يكون فارسا فى علم الإعراب ، ومواقع الجمل والمفردات وأن يكون مشتعل القريحة ذا دربة بأساليب النظم والنثر .

ولا أدعي أن تأليف كتابى هذا من نتاج فكري وحده ، بل هو نتاج خبرة السنين فى التدريس والمطالعة ، والمحاضرة ، واصطحاب علوم اللغة والتفسير والبيان والمعانى ، والأطلاع على كتب السابقين ممن كتبوا فى هذا العلم والتدبر فى أقوالهم ، والجمع بين ما قالوه والخروج منه بأصح الأقوال .

وإنى أحمد الله تعالى أن وفقنى إلى هذا السبيل وجعلنى خادما لكتابه العزيز . وهو نعم المولى ونعم النصير .

المؤلف

۞۞۞

بسم الله الرحمن الرحيم

النظرات

السموات والأرض

لم جاءت السماوات جمعا والأرض مفردة [1] ؟ وقد قال : ﴿ .. وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. ﴾ أى أن السموات سبع والأرض كذلك وقد يكون ذلك؛ لأن الأرض تدل على السفل والتحت ، فوصفت بهذا المكان المحسوس فلا معنى لجمعها كما لا يجمع فوق وتحت . وأما السموات فالمقصود بها ذاتها دون معنى الوصف فلهذا جمعت جمع مؤنث ، وهو عدد قليل ، وأتى مع الأرض بلفظ يدل على التعدد فقال : ﴿ .. وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ .. ﴾ والأرض بالنسبة إلى السموات وسعتها شئ قليل فهى وإن تعددت كالواحد القليل ، وأيضاً الأرض دار الدنيا والله تعالى لم يذكر الدنيا إلا مقللا لها ، ولذلك إذا أريد بالسماء معنى العلو والفوقية فقط أفردها قبل الأرض وأيضا السماء بعيدة عنا فلم نشاهد حالها بخلاف الأرض فالتحقق من حالها واقع مشاهد فحسن أن تأتى الأرض مفردة ، والسماء جمعا ومفردا .

۞۞۞

(١) انظر البرهان للزركشى ٤/٦ ، الخاطريات لابن جنى ٤٠ .

الريح والرياح فى القرآن

قد يأتى اللفظ القرآني بالإفراد تارة ، وفى موضع آخر يأتى جمعا فهل لذلك أثر فى النظم القرآنى البديع وقد تتبعت آيات الريح فى القرآن الكريم فوجدت أنه حيث ذكرت فى سياق الرحمة جاءت جمعا . انظر إلى قوله تعالى :

(١) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا ..

(٢) وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ..

(٣) .. أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ..

وحيث ذكرت الريح فى سياق العذاب تأتى مفردة .

انظر إلى قوله :

(١) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ..

(٢) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ .

(٣) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ .

ولهذا قال ﷺ : اللهم اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا .

والعلة فى ذلك أن رياح الرحمة تهب من جهات عديدة ، مختلفة الصفات والمنافع ، وإذا هاجت منها ريح جاء فى مقابلها ريح آخر يكسر شوكتها فينشأ منها جميعها ريح طيبة لطيفة تنفع الحيوان والنبات . وأما فى العذاب فإنها تأتى من وجه واحد ولا معارض لها ولا مدافع ولهذا وصفها بالعقيم . وقد اطردت هذه القاعدة فى القرآن الكريم إلا فى مواضع يسيرة مثل قوله :

﴿.. حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ..﴾ (١)

فقد ذكر ريح الرحمة بالإفراد لوجهين :

(١) وجه لفظي وهو المقابلة فإنه ذكر ما يقابلها وهو ريح العذاب (ريح عاصف) وهى مفردة .

(٢) وجه معنوي وهو أن تمام الرحمة إنما يحصل بوحدة الريح لا اختلافها فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من جهة واحدة وإن اختلفت عليها الرياح تصادمت وكانت سببا فى غرقها وهلاكها . فالمطلوب هنا ريح واحدة ولهذا وصفها فى الآية بأنها ريح طيبة دفعا للتوهم أن تكون عاصفة . (٢)

❁❁❁

(١) سورة يونس من الآية ٢٢ .

(٢) البرهان ٩/٤ .

الظلمات والنور

تجد القرآن الكريم يجمع الظلمات ويفرد النور . لماذا ؟

فقال : ﴿.. وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ..﴾ فجمع سبيل الباطل وأفرد سبيل الحق ، وطريق الحق واحد .

وأما الباطل فله طرق متعددة . ولهذا وحد الولى : ﴿ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ ..﴾ لأنه واحد أحد ، وجمع أولياء الكفر لتعددهم . فقال : ﴿.. وَالَّذِينَ كَفَرُواْ أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ ..﴾ [1].

❁❁❁

(1) البرهان ١٢/٤.

من أسرار النظم القرآني
آيات وعبر

الجنة والنار فى القرآن الكريم

جاءت الجنة فى القرآن جمعا تارة ، ومفردة تارة ، والنار لم تقع إلا مفردة لوجهين :

(١) لما كانت الجنات مختلفة الأنواع وهى اسم لدار الثواب مشتملة على مراتب كثيرة حسب استحقاق المؤمن لها حسن جمعها وإفرادها ، ولما كانت النار مادة واحدة أفردت باعتبار الجنس مثل الأرض .

(٢) لما كانت النار تعذيبا والجنة رحمة ناسب جمع الرحمة وإفراد العذاب ، وذلك نظير جمع الريح فى الرحمة وإفراد الريح فى العذاب .

ولأن النار دار حبس وعذاب فيناسبها أن تكون مكانا واحدا للمحبوسين المعذبين ليكون أنكد لعيشهم بخلاف الجنة فإنها درجات ولكل مطيع جنة فناسبها الجمع . [1]

❁❁❁

(1) البرهان ١٤/٤ ، والكشاف للزمخشرى ٢٥٧/١.

إفراد اليمين وجمع الشمال

فى قوله تعالى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْاْ إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَآئِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [1]

لما كانت اليمين جهة الخير والصلاح وأهلها ناجون أفردت . ولما كانت الشمال جهة الباطل جمعت ، وقد يكون اليمين بمعنى الجمع ؛ لأن الألف واللام فيه للجنس فقام العموم مقام الجمع . وأيضاً اليمين يجمع على أيمن وأيمان وهما من أبنية جموع القلة . والشمال يجمع على شمائل وهو جمع كثرة فجاء بالألف واللام فى اليمين الدالة على قصد التكثير واستغنى بها عن جمع اليمين [2].

وقال الفراء [3]: "وحّد اليمين وجمع الشمائل وكل ذلك جائز فى العربية"..

وقد يكون السبب فى إفراد اليمين وجمع الشمال أن قوله (من شئ) فى الآية نفسها مفرد . وقد أفاد معنى العموم ، أى كل شئ . ولذا قال يتفيأ ظلاله بالجمع فالإنسان لا يتفيأ ظل شئ واحد ، بل ظل أشياء متعددة . فلكى يناسب المفرد وهو (شئ) أتى باليمين مفردا ، وليناسب الجمع أتى بالشمائل جمعا .

(١) سورة النحل آية ٤٨.

(٢) البرهان ١٢/٤ ، كشف المعاني ٢٢٧ .

(٣) معاني القرآن ١٠٢/٢.

إفراد السمع وجمع الأبصار

فى قوله تعالى :

﴿ .. وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. ﴾ (٧٨) سورة النحل

﴿ .. أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ .. ﴾ (٣١) سورة يونس

﴿ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ .. ﴾ (٧) سورة البقرة

جاء البصر فى القرآن جمعاً ومفردا . وأما السمع فلم يرد جمعا . فلماذا ؟[1]

هناك عدة أوجه لبيان ذلك : منها :

(١) أن السمع غلب عليه المصدرية فأفرده ، والمصدر لا يثنى ولا يجمع إلا إذا تعدد مثل : ﴿ .. وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا.. ﴾ بخلاف البصر فإنه اشتهر فى الجارحة وإذا أردت المصدر قلت : أبصرت إبصاراً ، ولهذا لما استعمل السمع فى الحاسة وهى آلة السمع جمعه ، فقال : ﴿ .. يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم .. ﴾ .

(٢) أفرد السمع ؛ لأنه (فَعْل) ساكن العين صحيحها ولا يجمع على أفعال على الغالب ، وليس له جمع تكسير ، فاكتفى بالمفرد لدلالة الجنس عل الجمع

(١) البرهان ١٩/٤ ، كشف المعاني ٨٩ .

(٣) متعلق السمع هو الأصوات ، وهى حقيقة واحدة . ومتعلق البصر هو الألوان وهى حقائق مختلفة ومهما تعددت الأصوات فلن تسمع إلا صوتا واحدا منها . أما إذا تعددت الأشياء أمامك فيمكن أن تراها كلها جملة واحدة .

(٤) لا يمكن تعطيل حاسة السمع ، أما البصر فيمكن تعطيل حاسته بإغماض العينين .

(٥) السمع آلة تتوقف على مصدر الصوت الذى يطرق الأذن ، فإذا لم يوجد مصدر للصوت تعطلت الآلة وهى السمع . أما البصر فهو آلة مستعملة ما دام الإنسان يجد أمامه ما يُرى والعين فى حال اليقظة وليس على الأذن ما يمنع السمع فالسمع واحد عند الجميع ، أما الشئ المرئي فإنه مختلف لأننا لا ننظر جميعا إلى شئ واحد . وكذلك جمع الله (الأفئدة) لأنها متعددة مختلفة . فواحد يعى ويدرك ، وآخر لا يدرك ، ولم يأت بالبصر مفردا فى القرآن إلا فى قوله تعالى ﴿ .. إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ لأن الله يتحدث عن المسؤولية وهى مسؤولية كل إنسان عن سمعه وبصره والمسؤولية أمام الله فرديه لا يسأل أحد عن أحد. فناسب أن يكون بالإفراد .

✿✿✿

جمع الكلمة بصور متعددة

مثل : سنبلات وسنابل جمع سنبلة

فى البقرة آية ٢٦١ : ﴿ .. أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ .. ﴾

وفى يوسف آية ٤٣ : ﴿ .. وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ .. ﴾

فى البقرة جاءت (سنابل) لبيان المضاعفة والزيادة فناسب صيغة جمع الكثرة ، وفى آية يوسف جاءت سنبلات جمع قلة ليناسب اللفظ المعنى وعند علماء اللغة تقع أمثلة الجمع موقع بعضها كما فى قوله تعالى : ﴿ .. ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ..﴾ والقروء جمع قرء بضم القاف وفتحها وهو الحيض . فجاء التمييز (قروء) جمع كثرة على وزن فُعُول دون القلة وهو أقراء على وزن أفعال .

فكان حق ثلاثة فى الآية أن تضاف إلى أقراء أو أقْرؤ بوزن أفْعُل وكلاهما جمع قلة ؛ لأن تمييز العدد من ثلاثة إلى عشرة يكون جمع قلة والعرب يتسعون فى ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر ، ولعل القروء كانت أكثر استعمالا من الأقراء ففضله .

وهناك سر لطيف آخر وهو أن كل النساء تتربص ثلاثة أقراء ، ولما أسند التربص إلى جماعة النساء المطلقات وهن كثير أتى بلفظ قروء الدال على الكثرة [1] .

(١) انظر البرهان ٢٢/٤ ، والكشاف ٣٦٦/١- ٣٩٣/١ .

وأيضاً فضل جمع الكثرة هنا (قروء) لأن بناء القلة شاذ ، فإنه جمع قرء بفتح القاف وهو على وزن فَعْل . وجمع فَعْل صحيح العين على أفعال شاذ فجمع على فُعُول .

وأيضاً قد يكون هناك حذف والتقدير : ثلاثة أقراء من قروء .

وهنا سؤال لطيف وهو : لم قال يتربصن دون غيرها من الأفعال الدالة على ذلك مثل : يمكثن ، أو ينتظرن ، ولم قال : بأنفسهن وقال فى آية آخرى : تربص أربعة أشهر. دون ذكر الأنفس ؛ لأن فى اختيار لفظ التربص وهو الانتظار لأمر كان خيرا أو شرا يدل على التحفز ؛ لأن النساء بعد الطلاق يرون حياة أخرى جديدة وبعد انتهاء العدة تثبت لنفسها ولغيرها وذلك يصاحب صورة (التربص) .

وفى ذكر (الأنفس) تهييج لهن على التربص لأن أنفس النساء تطمح إلى الرجال فأمرهن الله أن يقمعن أنفسهن ويغلبنها على الطموح ويجبرنها على التربص . [1]

❀❀❀

(١) الكشاف (٣٦٥) ، ظلال القرآن (٤٥١) .

ذكر شيئين وعود الضمير على أحدهما دون الآخر

والغالب كونه الثاني لقربه

كما فى قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ فأعاد الضمير للصلاة لأنها الأقرب ، ولعظم شأنها .

وكما فى قوله : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ .. ﴾ أى وقدرهما . فأعاد الضمير على القمر ؛ لقربه ، ولأنه يعلم به الشهور والحساب .

وكما فى قوله : ﴿ .. وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ .. ﴾ أى يرضوهما ، فخص الرسول بالضمير العائد لأنه هو داعى العباد إلى الله ، والمخاطب لهم ... ولأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله ورضا الرسول مندرج تحت رضا ربه ورضاؤهما واحد لقوله : ﴿ مَّنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللّهَ .. ﴾[1] ، ولم يأت الضمير فى القرآن عائدا على الأول إلا فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا .. ﴾ والأصل : إليهما والأصل فى الضمير أن يعود على أقرب مذكور وهو هنا (اللهو) ، فخص التجارة بالضمير العائد ؛ لأنها كانت سبب الإعراض عنه وهو يخطب يوم الجمعة ، ولأنها تجذب قلوب العباد عن طاعة الله والمشتغلون بالتجارة أكثر من اللهو ، ولأنها أكثر نفعا من اللهو . [2]

(١) تفسير أبى السعود ١٥٤/٥ .

(٢) البرهان ٣١/٤ .

ومن ذلك قال تعالى : ﴿ .. وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا .. ﴾ .

لم قال ينفقونها وهما شيئان : الذهب والفضة . لأنه ذهب إلى المعنى دون اللفظ وكل واحد منهما عدد كثير دنانير ودراهم فهو مثل : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا .. ﴾ وقيل عاد الضمير إلى الكنوز من الاثنين وقيل عاد إلى الأموال . [1]

❀❀❀

(١) الكشاف ١٨٧/٢ .

وترى الجمال فى عود الضمائر فى القرآن ، وأسرار لا تحصى ففى قوله تعالى : ﴿ .. نَسِيَا حُوتَهُمَا .. ﴾ والناسى فتى موسى وهو يوشع بدليل قوله (فإنى نسيت الحوت) ، وقوله : آتنا غداءنا ولكن أضيف النسيان لهما .

والنسيان بمعنى الترك ، فموسى ترك التفقد والمتابعة والفتى ذهل عنه ، فقال : نسيا للإثنين معا[1] وعندما تجد ضميراً للمثنى وهو عائد على مفرد فى قوله تعالى ﴿ .. إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا .. ﴾ .

فثنى الضمير فى (أولى بهما) وكان حقه أن يوحد لأن قوله : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا ﴾ فى معنى إن يكن أحد هذين النوعين . ولكن رجع الضمير إلى ما دل عليه قوله : إن يكن غنيا أو فقيراً لا إلى المذكور كأنه قال: فالله أولى بجنس الغنى والفقير أى بالأغنياء والفقراء [2] .

ومما جاء فى القرآن من الإفراد فيما ظاهره التثنية قوله تعالى : ﴿ .. وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ الأنبياء ٩١ .

فقال (آية) وظاهر السياق التثنية : آيتين والسر فى ذلك أن شأنهما واحد . ولو قال آيتين لكان صوابا ؛ لأنها ولدت من غير زوج ، وتكلم عيسى فى المهد وقد يكون سر الإفراد فى الآية ، أن ميلاد عيسى عليه السلام دون أب وكلامه فى المهد إنما هو معجزة خاصة به دون غيره . فهو بما حدث له يصح أن يكون علامة أو آية [3] .

(١) كشف المعانى فى ٢٤١ ، البرهان ٣ / ٤ .
(٢) الكشاف ١ / ٥٧٠ .
(٣) معانى الفراء ٢ / ٢١ .

ومن ذلك قوله تعالى ﴿ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الشعراء (١٦) .

فجاء التعبير بالإفراد فى (رسول) وظاهر السياق التثنية لأن المرسل إلى فرعون كان موسى وهارون .

وقد يكون ذلك لأن لفظ الرسول اسم للماهية واحدة أو أكثر فيستوى فيه الواحد والإثنين، وأيضا اتفاقهما فى شريعة واحدة ، واتحادهما بسبب الأخوة كأنهما رسول واحد (١) .

وتأمل قوله تعالى : ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ فلم قال منهما وإنما يخرجان من الملح دون العذب ؟ لأنه لما التقيا وصارا كالشئ الواحد جاز أن يقال يخرجان منهما .

ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿..لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ وإنما أريد إحدى القريتين .

ومثل قوله تعالى : ﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ .. ﴾ الأنعام ١٣٠ وإنما الرسل من الإنس دون الجن ؛ لأنه لما جمع الثقلين فى الخطاب صح ذلك وإن كان الرسول من أحدهما (٢) .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا .. ﴾ ثم قال : فتاب عليه فرجع إلى آدم بالرحمة والتوبة والقبول دون حواء ؛ لأنها كانت تبعا

---

(١) الفخر الرازى ٣ / ٣٦٥ .
(٢) الفخر الرازى ٤/ ١٥٢ .

له ، كما حدث فى دعوة موسى على فرعون وملئه ثم قال : قد أجيبت دعوتكما بالمثنى والداعى هو موسى ؛ لأن موسى كان يدعو وهارون يؤمّن ، أو كانا يدعوان معا وموسى هو المبعوث للرسالة فجاء الجواب لهما معا .

۞۞۞

التعبير بلفظين مختلفين فى موضعين

بمعنى واحد :

كما فى قوله تعالى : ﴿.. فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ..﴾ (البقرة ٦٠) وقوله تعالى ﴿.. فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ..﴾ (الأعراف ١٦٠).

يقال انبجس الماء أى انفجر ، لكن الانبجاس يستعمل أكثر فيما يخرج من شئ ضيق ، والانفجار يستعمل فيما يخرج من الواسع والضيق . فاستعمل القرآن اللفظين حيث ضاق المخرج .

فالانبجاس أولا ثم الانفجار ثانيا ، والانفجار أبلغ أما قوله تعالى : وفجرنا خلالهما نهرا ، وقوله : ﴿وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ..﴾ فالمخرج واسع فقال : فجرنا ، ولم يقل بجسنا [(١)] .

وقد أتى بالانفجار فى سورة البقرة لأنه استجابة لاستسقاء موسى عليه السلام (وإذا استسقى موسى لقومه) ولذا أمرهم فى آية البقرة بالأكل والشرب وأتى بالانبجاس فى سورة الأعراف لأنه استجابة ، لطلب بنى إسرائيل استسقاء موسى لهم ﴿.. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ ..﴾ ولذا أمرهم بالأكل فقط . [(٢)]

❀❀❀

(١) الدر المصون ١ / ٢٣٧ ، كشف المعانى ٩٨ ، المفردات ٣٧ .

(٢) نظرات لغوية فى القرآن الكريم د / صالح العايد .

قوله تعالى :

﴿.. آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (الكهف ٦٥).

فى الرحمة قال (من عندنا) وفى العلم قال (من لدنا) فهل هناك فرق بين لدن ، وعند ؟ المعروف عند العامة أن عند بمعنى لدن ، ولكن لدن لا تقال إلا فى حالة ملك الشخص وبحضرته . فتقول : المال لدن فلان بمعنى حاضر عنده الآن ، أما المال عند فلان فهو مالك له حضر أو غاب ولذا قال تعالى : ﴿.. وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾ أى من العلم الخاص بنا وهو علم الغيب فـ (عند) أعم من لدن ، ولدن أخص وأبلغ من عند [(١)] .

ولدن تدل أيضا على الابتداء فتقول : أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها فتوضح نهاية الفعل .

❀❀❀

(١) أنظر البرهان ٤ / ٢٩٠ ، المفردات ٤٤٩ .

الأجر والجزاء [1]

الأجر ما يعود من ثواب العمل دنيا أو أخرى .

يقول تعالى : ﴿.. إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ ..﴾ ، وقال : وآتيناه أجره فى الدنيا ، وقال : ولأجر الآخرة خير .

والأجر يقال فيما كان عن عقد ولا يقال إلا فى النفع دون الضرر ﴿.. لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ..﴾ ﴿.. فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ..﴾ .

أما الجزاء فيقال فيما كان عن عقد وغير عقد ويقال فى النافع والضار ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ ﴿.. فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ ..﴾.

۞۞۞

قال تعالى : ﴿.. تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا ..﴾ .

وقال ﴿.. تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا ..﴾ فى الأولى الحديث عن الصوم ، والثانية الحديث عن الخلع والطلاق . وفى الأولى تحذير من محظورات مشتهاه وهى شديدة الجاذبية ومن الخير التحذير من مجرد الاقتراب منها . وهى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُواْ مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّواْ الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ..﴾

(١) المفردات ١١ .

أما الأخرى فهو مجال مكروهات وخلافات فالخوف هنا هو تعدي الحدود وتجاوزها ، فجاء التحذير من التعدي لا من المقاربة [1] .

۞۞۞

فى النساء يقول تعالى : ﴿.. يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ..﴾ وفى المائدة ٤١ يقول : ﴿.. يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ..﴾ لماذا ؟ .

فى آية النساء قال : عن مواضعه ؛ لأنهم يزيلونه عن موضعه ويبدلونه ويضعون مكانه كلاماً آخر غيره ، وبذلك قد أمالوه عن مواضعه التى وضعه الله فيها ، وأزالوه عنها .

أما إذا كان الكلام له موضع وهو أولى أن يكون فيه فحين حرفوه نقلوه من الموضع الذى وضعه الله فيه فصار وطنه ومستقره إلى غير موضعه . وهذا ما يقال فيه : من بعد مواضعه . ومثال ذلك التحريف عن مواضعه كما قالوا عند نزول التوراه حنطه مكان حطة فجاءت (عن) مناسبة لذلك .

وقد يكون التحريف فى آية النساء هو التحريف الأول عند نزول التوراة، وفى آية المائدة تحريفهم فى زمن الرسول ﷺ عندما غيروا ما قيل لهم فى التوراة بغير معناه فــ " عن " لما قرب من الأمر ، و" بعد " لما بعد من الأمر [2] .

۞۞۞

(١) الدر المصون ١ / ٤٧٧ ، كشف المعانى ٣ / ١ .

(٢) انظر الكشاف فى ١ / ٥٣٠ ، كشف المعانى ١٤٦ .

قال تعالى : ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا ..﴾ الأنعام آية ٦ .

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ ..﴾ (٤١) سورة الرعد .

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا ..﴾ (٩) سورة سبأ .

جاءت همزة الاستفهام فى الأولى بغير فاء أو واو وفى الثانية بواو وفى الثالثة بالفاء فهل هناك فرق فى المعنى بينها ؟ إذا كان الاعتبار من الرؤية بالمشاهدة والحاضر يأتى بالواو " أولم " وكذلك الفاء لكنها اشد اتصالا من الواو .

أما إن كان الاعتبار من الرؤية بالاستدلال والنظر العقلى فإنه يأتى بقوله : ألم [1] دون الواو والفاء ليجرى مجرى الاستئناف لأنه فى الأنعام تحدث عن إهلاك من قبلهم وهو أمر غائب غير شاهد ، وحين تكون الرؤية بالمشاهدة حاصلة يكون الإنكار بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ ..﴾ بالواو الدالة على شدة الإنكار مثل : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا ..﴾(٧) سورة الشعراء .

✿✿✿

فى الأنبياء قال : ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا ..﴾ وفى القلم آية ٤٨ قال : ﴿.. وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ ..﴾ .

فى الأولى قال : وذا النون أى صاحب الحوت والمراد يونس عليه السلام ، وفى الثانية أتى بالأصل : صاحب الحوت . فلماذا ؟ والمعنى واحد أقول : الإضافة بكلمة (ذى) اشرف من الإضافة بـ " صاحب " ، ولفظ النون أشرف من

(١) البرهان ٤ / ١٥٠ ، كشف المعانى ١٥٥ .

الحوت لوجوده فى حروف الهجاء (نون والقلم) ففى موضع الثناء قال : وذا النون .

أما فى النهى فقال : ولا تكن كصاحب الحوت ، ولم يقل ولا تكن كذى النون ؛ لأن يونس ذهب مغاضبا فاقترن هذا الوصف بذى النون ولو قال الله لمحمد : ولا تكن كذى النون فيكون المعنى : لا تكن مثله حين ذهب مغاضبا وليس المعنى كذلك والله أعلم [1] .

✿✿✿

فى النحل آية ٣٦ يقول : ﴿.. وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ..﴾ .

وفى الأعراف ٣٠ يقول : ﴿فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ..﴾

ثبتت التاء فى الأولى (حقت) وحذفت من الثانية (حق) فلماذا ؟ .

الجواب : أن الحاجز اللفظى بين الفعل وفاعله فى الأولى قليل وهو (عليه) فجاء حقت بالتاء والحاجز فى الثانية أكثر وهو (عليهم) فحذف التاء من حق وكلما كثرت الحواجز كان حذف التاء أحسن .

وأيضا الآية الأولى فى سورة النحل واقعة على الأمة وهى مؤنثة فى قوله : ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ..﴾ أى من الأمم أمة ضلت وحقت عليها الضلالة وفى الثانية معناه : وفريقا ضلوا . والفريق مذكر [2] .

✿✿✿

(١) نتائج الفكر للسهيلى ، البرهان ١ / ١٦٢ ، ٤ / ٦٣ .

(٢) نتائج الفكر للسهيلى ٢١٧١ البرهان ٣ / ٣٦٩ .

قوله تعالى : ﴿لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لَأَقْتُلَكَ ..﴾(٢٨) سورة المائدة .

لم جاء الشرط بصيغة الفعل بقوله : بسطت وجاء الجزاء بقوله : (باسط) بصيغة اسم الفاعل ؟

والجواب : لأن الفعل لا يفيد سوى حدوث معناه من صاحبه ، وأما اسم الفاعل (باسط) يعطى اتصاف الذات بالفعل مثل قام زيد فهو قائم ، فالعدول عن الفعل إلى اسم الفاعل يعنى أن هابيل لم يرد أن يكون القتل متصلا به وواقعا منه وإنما القتل واقع من قابيل بدليل قوله (بسطت) بصيغة الفعل .

ولم قال فى الأولى : بسطت إلىّ يدك ، وفى الثانية : باسط يدى إليك فقدم فى الأولى (إلىّ) على يدك ؛ لأن الأول حريص على التعدى على الغير فقدم إلىّ على اليد وهى الآلة التى يتعدى بها ولما كان الثانى غير حريص على القتل وقد نفى عن نفسه ذلك قدم الآلة (يدى) على إليك [١] .

❁❁❁

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ (٧٠) سورة الشعراء

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ (الصافات ٨٥)

فى الشعراء قال : ما تعبدون ؛ لأنه سأل عن حقيقة معبودهم فلذلك أجابوا : نعبد أصناما .

---

(١) الكشاف ١ / ٦٠٧ .

أما آية الصافات فهو استفهام توبيخ وتقريع بعد معرفته لمعبودهم ، ولم يجيبوه هنا لفهم قصد الإنكار عليهم . فتكون (ماذا) ابلغ فى الاستفهام من (ما) [١] .

❁❁❁

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ (١٠) سورة النور

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (٢٠) سورة النور

هناك فرق فى ختام الآيتين وصدرهما واحد لماذا ؛ لأن الأولى تقدمها ذكر الزنا والجلد فناسب ختمه بالتوبة حثا عليها ، وأنها مقبولة من التائب .

وناسب قوله (حكيم) لأن الحكمة تقتضى ما قدمه من العقوبة لما فيه من الزجر عن الزنا .

وأما الثانية فقوله (رءوف رحيم) ذكره بعد قصة أصحاب الإفك ، فبين أنه لو لا رأفته ورحمته لعاجلهم بالعقوبة على عظيم ما ذكروه من الإفك [٢] .

❁❁❁

﴿وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ..﴾ (٢٠) سورة القصص .

﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ..﴾ (٢٠) سورة يس .

---

(١) كشف المعانى ٢٨٠ .

(٢) كشف المعانى ٢٧١ .

فى آية القصص قدم (رجل) على الجار والمجرور (من أقصى) ، وفى سورة يس قدم الجار والمجرور على (رجل) .

لأنه فى آية القصص وصفه بأنه قادم من أقصى المدينة وهو رجل نكرة وموسى لا يعرف عنه شيئا إلا أنه قادم من مكان بعيد يخبره ما كان فيه الكفار من المؤامرة لقتله .

والرجل قصد نصح موسى فناسب ذكره مقدما وهو المقصود بالذكر أما فى آية يس ، فالحديث عن سوء معاملة أصحاب القرية للرسل وتكذيبهم فكان المناسب الحديث عن القرية أولا وتوبيخهم على استمرارهم فى الكفر مع مشاهدتهم للآيات المعجزة ومن مظاهر تقريعهم أن يأتى من أقصى المدينة ذلك المكان البعيد رجل لم ير من المعجزات ما رأوه ومع ذلك يؤمن وهم يكفرون فلما كان بعيدا عن مواطن الدعوة قدم بيان مكانه على ذكره هو ومجيئه من البعد أنسب لدفع التهمة عنه [1].

(١) البرهان ١ / ١١٥ ، ٣ / ٣٨٤ .

سقى وأسقى

﴿.. وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (٢١) سورة الإنسان .

﴿.. وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاء فُرَاتًا﴾ (٢٧) سورة المرسلات .

﴿.. لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقًا﴾ (١٦) سورة الجن .

هل هناك فرق بين سقى بغير همزة ، وأسقى بهمزة ؟

الجواب : سقى بغير همزة لما لا كلفة معه فى السقيا ، والسقيا فى الآخرة لا يقع فيها كلفة بل جميع ما يقع فيها يقع سهلا يسيرا بخلاف (أسقى بالهمزة فإنه لابد فيه من الكلفة بالنسبة للمخاطبين كقوله: وأسقيناكم ماء فراتا و«لأسقيناهم ماء غدقا » وهذا إسقاء فى الدنيا ، وفيه كلفة ومشقة .



مطر وأمطر

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ .

هل هناك فرق بين مطر الثلاثى وأمطر الرباعى وهل مطر فى الخير وأمطر فى الشر ؟

الجواب : يقال مطرهم السماء ، أى أصابهم المطر .

ويقال : أمطرت عليهم : أى أرسلته عليهم إرسال المطر أى أرسلت عليهم شيئا على نحو المطر وإن لم يكن ماء حتى لو أرسل الله عليهم من السماء خيرات وأرزاقا لجاز أن يقال : أمطرت السماء خيرات أى أرسلتها إرسال المطر . ومنه قوله فأمطر علينا حجارة من السماء .

وقوله : وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل .

فمعنى قوله : وأمطرنا عليهم مطرا أى أرسلنا عليهم نوعا عجيبا من المطر يعنى الحجارة ولذا قال : فساء مطر المنذرين .

فليس للشر خصوصية فى الصيغة الرباعية (أمطر) ولكن اشتهر بأن السماء لم ترسل شيئا سوى المطر إلا وكان عذابا فظن السامعون أن أمطر خاص بالشر وليس كذلك وإنما كثر الإمطار فى معنى العذاب .[1]

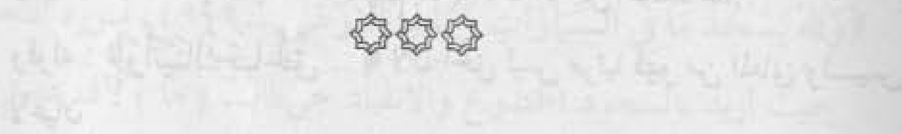
(١) الكشاف ٩٣/٢ .

خَطِئ وأخطأ [1]

يقال فى اللغة : خَطِئ يخطأ خطأً فهو خاطئ أى تعمد الذنب ، ومنه الخطيئة . ومنه قوله تعالى : ﴿لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِؤُونَ﴾ وقوله : ﴿.. وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ وقوله ﴿.. وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ﴾ ومنه : ﴿.. إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾ ومنه : ﴿.. إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ .

أما أخطأ يُخطئ إخطاءً فهو مخطئ أى غلط ولم يتعمد الذنب ، والاسم منه : خطأ ، أى : يريد فعل ما يحسن فيقع منه خلاف ما يريد ، ومنه قوله تعالى : ﴿.. وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَئًا ..﴾ .

ومنه قوله : ﴿..وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ..﴾ ومنه الحديث : " من اجتهد فأخطأ فله أجر " ومنه الحديث : " رُفِعَ عن أُمتى الخطأ والنسيانُ " .



(١) الكشاف ٤ / ١٥٢ المفردات للراغب ١٥١ .

جاء وأتى

يستويان فى الفعل الماضى ، وفى المضارع نجد أن يأتى أخف من يجئ وكذلك فى الأمر أخف : فأتوا بمثله أخف من جيئوا بمثله . ولم يأت فى القرآن إلا يأتى ويأتون وفى الأمر : فأت ، فأتنا ، فأتوا .

وتستعمل (جاء) فى الماضى فى الجواهر والأعيان ، ويستعمل (أتى) فى المعانى والأزمان . وفى مقابلهما : ذهب ومضى يقال : ذهب فى الأعيان ، ومضى فى الأزمان ولذا يقال : حكم الله ماض ولا يقال ذاهب . لأن الحكم ليس من الأعيان وانظر إلى قوله : ﴿.. وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ .. ﴾ ؛ لأن الصواع من الأعيان وقوله : وجئ يومئذ بجهنم ؛ لأنها عين .

وقوله : ﴿ .. بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى العذاب وهو مرئى مشاهد كالأعيان .

وقوله : ﴿ ... فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ .. ﴾ لأن الأجل كالمشاهد .

وقوله : ﴿وَآتَيْنَاكَ بَالْحَقِّ .. ﴾ لأن الحق ليس مرئيا فهو من المعانى وليس من الأعيان

وقوله : ﴿أَتَى أَمْرُ اللّهِ .. ﴾ والأمر من المعانى .

وقوله : ﴿.. أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا .. ﴾ أى قضاؤنا وحكمنا وهو من المعانى .

أما قوله : ﴿ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا .. ﴾ أى العذاب لأنه مشاهد فهو من الأعيان [1] .

(١) انظر البرهان ٤ / ٨١ .

نزّل وأنزل

والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل (سورة النساء).

لم قال : نُزل على رسوله ، وأنزل من قبل ؟

لأن القرآن نزل مفرقا منجما على ثلاث وعشرين سنة فقال (نُزّل) أما الكتب السماوية الأخرى فنزلت مرة واحدة على أنبيائها فقال (أنزل) وهذا هو الفرق بين نزّل وأنزل ، قال : أنزلناه فى ليلة القدر أى نزل مرة واحدة إلى سماء الدنيا ثم نزل مفرقا بعد ذلك [1] .

❁❁❁

﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ..﴾ (١٥) سورة الرعد .

﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ..﴾ (٤٩) سورة النحل .

حيث أريد بالسجود الخضوع والانقياد جيء بـ (ما) لأنها عامة فيمن يعقل ومن لا يعقل كآية النحل ؛ لأن (ما) تتناول الأجناس كلها تناولا عاما بأصل الوضع و(من) تتناول العقلاء فقط . فكان استعمال (ما) هنا أولى .

وفى الرعد أريد من يعقل لتقدم قوله : ﴿.. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ ..﴾ وقوله : ﴿سَوَاء مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ ..﴾ .

(١) الكشاف ١ / ٥٧١.

فناسب ذكر (من) [1] .

❁❁❁

قوله تعالى : ﴿.. فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ..﴾ (١٩٦) سورة البقرة .

المعلوم أن الثلاثة والسبعة مجموعهما عشرة ، كما قال تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..﴾ .

ومعلوم أيضا أن الثلاثين والعشر مجموعهما أربعون فلماذا أعاد ذكر العشرة فى الآية الأولى ، وأعاد ذكر الأربعين فى الآية الثانية ؟ .

أقول وبالله التوفيق فى مسألة الثلاثة والسبعة هناك أجوبة على هذه المسألة منها [2] :

١- قوله (كاملة) يفيد أن ما حصل من الأجر الكامل للهدى إن وجد وتيسر هو الأجر نفسه لمن لم يجد الهدى وصام الثلاثة والسبعة . أى أن الثواب فى الصيام كالثواب فى الهدى لا ينقص .

٢- رفع احتمال أن المتمتع عليه صوم سبعة فقط ثلاثة منها فى الحج ويكمل سبعا إذا رجع فقوله ﴿.. تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ..﴾ تزيل هذا الإشكال ويبين أن الواجب بعد الرجوع سبعة سوى الثلاثة المتقدمة .

(١) كشف المعانى ٢١٨ .

(٢) الفخر الرازى ٥ / ١٥٧ ، الكشاف ٧٤٥ ، البرهان ٢ / ٤٧٨ .

٣- رفع احتمال أن المراد بالسبع ما هو أكثر من السبع فى لغة العرب ، لأن لفظ سبعة عند العرب قد تذكر ويراد بها الكثرة لا العدد المحصور بين ستة وثمانية ويقال : سبع الله لك الأجر ، أى ضاعفه لك .

٤- جاء ذكر العشرة لرفع توهم التداخل ؛ لأنه يحتمل أن تكون الثلاثة داخلة فى السبعة التى بعدها . كما فى قوله تعالى : ﴿.. وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ أى مع اليومين اللذين خلق الأرض فيهما فلابد من ذكر العشرة لرفع هذا التوهم .

٥- دفع إرادة الإباحة فى أن الواو بمعنى (أو) عند بعض العرب بمعنى التخيير . فجاء بلفظ العشرة جمعا للثلاثة والسبعة معا دفعا لهذا التوهم .

٦- لفظ (كاملة) أى فى الفضل لا فى العدد .

فذكرت العشرة لتوصف بالكمال ، ولدفع نقصان الصفة فالكمال يأتى لإزالة نقصان العوارض بعد تمام الأصل ولهذا جاء قوله تعالى : ﴿.. تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ..﴾ أحسن من (تامة) لأن التمام من العدد قد علم ، وإنما بقى احتمال نقص فى صفاتها ولذا يقال : رجل كامل إذا جمع خصال الخير ورجل تام إذا كان غير ناقص الطول .

واجتمع التمام والكمال فى قوله تعالى : ﴿.. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ..﴾ .

والعطف يقتضى المغايرة ، أى أتممت نعمتى عليكم دون نقص فى عددها، وأكملت لكم الدين الذى يجمع الخير كله ، أى هناك إتمام للنعمة وإكمال لشرائع الدين [1] .

(١) البرهان ٤ / ٢٨٤ ، الكشاف ١ / ٥٩٣ المغنى ٧٦ ، ٣٤٧ .

وروى أن الحجاج بن يوسف الثقفى قال لرجل من ولد عبد الله بن مسعود ﷺ : لم قرأ أبوك – يعنى ابن مسعود – إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة أنثى " ص ٢٣ ألا يعلم الناس أن النعجة أنثى ؟ فقال : قد قرئ قبله " ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة " ألا يعلم الناس أن سبعة ، وثلاثة عشرة فما أحار الحجاج (١) .

واجتمع الكمال والتمام أيضا فى قوله تعالى : ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ ..﴾ (٢٣٣) سورة البقرة

فلماذا وصف الحولين بالكمال ، ووصف الرضاعة بالإتمام " وصف الحولين بالكمال ، لأن الحول يحتمل عدم الإكمال ، فلو قال : حولين من غير وصف " كاملين " احتمل عدم استكمالهما فجعل الله تعالى الحولين الكاملين حدا عند اختلاف الأبوين فى مدة الرضاعة ، فلا يحق للوالدة الامتناع عن الرضاعَ قبل إكمال الحولين أما لو أراد الأب فطام ولده دون بلوغ الحولين فله ذلك ، ثم إن وصف الحولين بالكمال تنبيه على أنه لا يجوز تجاوز ذلك وأنه لا حكم للإرضاع بعدهما .

أما استعمال التمام مع الرضاعة فلأن الفطام يمكن حصوله قبل هذه المدة المعتادة ، ولأن الطفل لو لم يحمل على الفطام لشب على حب الرضاع (٢) .

أما الآية الثانية فهى قوله تعالى : ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..﴾ (١٤٢) سورة الأعراف .

(١) البصائر والذخائر لأبى حيان التوحيدى ٧ / ٨١ .

(٢) الكشاف ١ / ٣٦٩ – ٣٧٠ .

وفى البقرة أجملها بقوله:﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ..﴾ (٥١) سورة البقرة

والمعلوم من الثلاثين والعشر أنها أربعون ؛ لأن العشر لما أتت بعد الثلاثين التى هى نص فى المواعدة دخلها الاحتمال أن تكون من غير المواعدة فأعاد ذكر الأربعين نفيا لهذا الاحتمال ، وليعلم أن جميع العدد مواعدة من الله لموسى ، وأجاب ابن عساكر بأن العشر فصل عن الثلاثين ليتحدد قرب القضاء المواعدة ويكون موسى متأهبا حاضر الذهن عند تمام الثلاثين ، فيوعد بعشرة أخرى ليتجدد بذلك عزم لم يحدث لو ذكر الأربعين مرة واحدة وقد ذكر فى آية البقرة أربعين ليلة بالإجمال دون تفصيل لأنه قصد ذكر الامتنان على بنى إسرائيل بما أنعم عليهم فذكر نعمه عليهم مجملة مثل : وإذ فرقنا بكم البحر – وإذ أنجيناكم من آل فرعون ... (١) .

وقيل : أنه لما قال : ثلاثين ميزها بقوله : ليلة ، لكنه لما قال : وأتممناها بعشر تركها دون تميز ، فاحتمل أن تكون عشر ساعات ، فأزال الإبهام المتوقع بقوله : أربعين ليلة (٢)

✿✿✿

﴿..لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ ..﴾ (٢٣٣) سورة البقرة

لماذا لم يقل : وعلى الوالد ، أو وعلى الأب ؟ .

كما قال : والدة ؟

(١) البرهان ٢ / ٤٧٨ ، ٤٥٢ .

(٢) البحر المحيط ٥ / ١٦١ .

أراد سبحانه أن ينبه على العلة التى لأجلها اختصت نفقة الولد بأبيه دون أمه ، ولأن اللام تستعمل فى النفع ، وهى هنا مشعرة بالنفع الحاصل من الولد .

ويدل ذلك أيضا على إعلام الأب بفضل الله عليه حيث منحه الولد دون مشقة من الأب ، واللام فى المولود له كأنها شبه التمليك .

وكذلك يكون الولد غالبا مطيعا لأبيه ولما يأمر به وأيضا التعبير بقوله : (المولود له) يدل على أن النفقة واجبة على من يكفل الولد بعد وفاة أبيه كالجد والعم والأخ وكل هؤلاء يشملهم قوله : المولود له فالتعبير بذلك ؟ أشمل من التعبير بالأب أو الوالد [1] .

۞۞۞

فى النحل ١٤ : ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ ..﴾ .

وفى فاطر : ﴿.. وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ ..﴾ .

س : لم كرر فى النحل لفظ (منه) وأخر لفظ (فيه) وليس فى فاطر ذلك .

(1) البحر المحيط ٢ / ٥٠٠ .

جـ - آية النحل سيقت لتعداد النعم على الخلق بدليل تقديم وهو الذى سخر البحر فتكرر لفظ (منه) لتحقيق ذكر النعم ولذلك عطف (ولتبتغوا) بالواو العاطفة لمناسبة تعدد النعم .

أما فى فاطر فقد سيقت لبيان القدرة والحكمة بدليل : والله خلقكم من تراب فحذف منه لدلالة : ومن كل تأكلون .

وقدم مواخر على فيه لأنه امتن عليهم بتسخير البحر فناسب تقديم مواخر أى شاقه للماء .

وفى فاطر قدم " فيه " على مواخر لأن جريان الفلك فى الماء آية من آيات الله فالتقدم هنا أنسب لأن آية فاطر سيقت لبيان القدرة [1] .

۞۞۞

﴿السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ ..﴾ (١٨) سورة المزمل .

السماء مؤنثة ، ولم يقل منفطرة وفى ذلك أوجه :

١ - السماء تذكر وتؤنث فجاء منفطر على التذكير .

٢ - من باب اسم الجنس الذى يذكر ويؤنث ، مثل : أعجاز نخل منقعر ، وأعجاز نخل خاوية ، فالنخل اسم جنس يذكر ويؤنث واسم الجنس بينه وبين مفرده تاء مثل شجر وشجرة ونخل ونخله وتمر وتمرة ، فكذلك سماء مفردها سماءة .

٣ - ذكر السماء على معنى السقف ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ..﴾

(1) كشف المعانى ٢٢٦ .

٤- على معنى النسب أى ذات انفطار ، كقولهم : امرأة مرضع أى ذات رضاع.

٥- صفة لخبر محذوف مذكر ، أى شئ منفطر ، كما قال " إن رحمة الله قريب " أى شئ قريب [(١)] .

۞۞۞

﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (١٤٧) سورة الصافات .

ما نوع (أو) هنا .

هل للشك أو للتخيير أو بمعنى الواو . هناك أوجه لها كما يلى :

١- قال الفراء (أو) بمعنى بل ، أى بل يزيدون .

٢- قال بعضهم بمعنى الواو ، وقرئ : ويزيدون .

٣- قيل (أو) للتخيير ، أى إذا رآهم الرائى تخير بين أن يقول هم مائة ألف ، أو يقول : هم أكثر ، فأو على بابها دالة على أحد الشيئين إما مائة ألف بمفردها ، أو مائة ألف مع زيادة .

٤- قيل (أو) للشك مصروفاً إلى الرائى ، أى يزيدون فى مرأى الناظر، أى إذا رآها الرائى قال هى مائة ألف أو أكثر ، والغرض الوصف بالكثرة ، كقوله تعالى : ﴿.. وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ..﴾ (٧٧) سورة النحل ، أى لو علمتم سرعة الساعة لعلمتم أنها كلمح البصر ، أو هو أقرب عندكم [(٢)] .

۞۞۞

(١) البرهان ٣ / ٣٦٢ .

(٢) المغنى ٢٧٦ نتائج الفكر ٢٥٣ ، البرهان ٤ / ٥٥ الكشاف ٣ / ٣٥٤ .

العدل عن لفظ إلى آخر

قد يأتى اللفظ فى القرآن الكريم بدلا من لفظ آخر مثل أن يأتى المضارع بدلا من الماضى ، أو فعل بمعنى آخر يتضمن معناه بزيادة عليه ، أو لفظ مذكر بدلا من مؤنث ، أو ذكر مشبه فى موضع المشبه به أو وضع مصدر فعل بدلا من غيره وهكذا وسوف أذكر بإذن الله شواهد من آيات القرآن لبيان ذلك منها .

قوله تعالى ﴿.. فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا ..﴾ (١٤) سورة العنكبوت.

لم استثنى خمسين عاما من ألف سنة . فهل السنة غير العام أو هى العام نفسه ؟

ذكر فى مدة اللبث : السنة ، وفى الانفصال : العام للإشارة إلى أنه كان فى شدائد فى مدته كلها إلا خمسين عاما قد جاءه الفرج والغوث فيها والسنة تستعمل غالبا فى موضع الجدب ، ولهذا سموا شدة القحط : سنة ، " *ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين* " [(١)] ويعبر عن العام بالخصب والرخاء .

قال ابن الجواليقى : " ولا تفرق الناس بين العام والسنة ويجعلونها بمعنى واحد وهو غلط ، والصواب أن السنة من أى يوم عددته إلى مثله ، والعام لا يكون إلا شتاء وصيفا فالعام أخص من السنة فعلى هذا تقول : كل عام سنة ،

(١) المفردات للراغب ٢٤٥ .

وليس كل سنة عاما [1] وسار أكثر المفسرين على هذا فاستشهدوا بأحاديث شريفة للدلالة على التفريق بين العام والسنة بالقحط والخصب . ومنها ما رواه مسلم عن ثوبان أن رسول الله قال [2] : "*وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة عامة* " .

وفرق بينهما أبو هلال العسكرى من جوانب أخرى فقال [3] :

العام جمع أيام ، والسنة جمع شهور ، ويجوز أن يقال : العام يفيد كونه وقتا لشئ ، والسنة لا تفيد ذلك ، ولهذا يقال : عام الفيل ولا يقال سنة الفيل .

ويقال فى التاريخ : سنة كذا ولا يقال عام كذا ، ويرى السهيلى أن العام يطلق على الشهور القمرية ، والسنة تطلق على الشهور الشمسية [4] .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا ..﴾ ولم يقل أعواما ، وقال : ثم يأتى من بعد ذلك عام ولم يقل سنة . فإن السنة يعبر بها عن الشدة والقحط والرؤيا دلت على سبع سنين شداد وليس بعد الشدة إلا الرخاء .

وانظر إلى قوله تعالى : ﴿.. وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ..﴾(١٥) سورة الأحقاف.

(١) تاج العروس للزبيدى ٨ / ٤١٣ .

(٢) صحيح مسلم ٣ / ٢٢١٥ ، تفسير أبي السعود ٤ / ٢٣٨ .

(٣) الفروق اللغوية ٢٢٤ .

(٤) الروض الأنف ٢ / ٥٧ .

فإنما ذكر السنين لأنها أطول من الأعوام وأكمل وتخبر عن تمام قوة الإنسان واستوائه .

وقال : ﴿.. وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ ..﴾ (١٤) سورة لقمان .

لأن الرضاع من الأحكام الشرعية ، والحساب فيها بالأهلة والعام يطلق على الشهور القمرية [1] .

وقال : ﴿.. يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا ..﴾ (٣٧) سورة التوبة وهم كانوا يحسبونه بالشهور القمرية .

وقوله : ﴿.. فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِئَةَ عَامٍ ..﴾ (٢٥٩) سورة البقرة .

وحسابهم بالأعوام والأهلة .

ولذا قال تعالى : ﴿.. فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ (٤) سورة المعارج .

وقال : ﴿.. وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (٤٧) سورة الحج

وقد ورد ذلك فى موضع التكثير والتفخيم لطول ذلك اليوم ، والسنة أطول من العام كما تقدم .

❀❀❀

(١) الروض الأنف للسهيلى ٢ / ٥٨ .

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف

لم قال استمعوا له وأنصتوا ؟ هل الاستماع هو الأنصات أم غيره ؟ ، الإنصات ، هو السكوت للاستماع أى مطلوب عند قراءة القراءة الاستماع مع السكوت لأن الاستماع قد يكون مع غير السكوت أى يستمع وهو يتحدث فلا يكون محيطا بما يسمع أما إذا سمع وسكت فتحصل الإحاطة التامة بمعانيه وألفاظه .

وقيل إن المخاطب فى الآية هُم المؤمنون فتجرى الآية على عمومها أى فى أى موضع قرأ الإنسان القرآن وجب على كل واحد استماعه والسكوت .

وقيل إنها نزلت فى تحريم الكلام فى الصلاة ، لأنهم فى أول الدعوة كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فنزلت هذه الآية ، وأمروا بالإنصات أى السكوت وعدم الكلام وقيل نزلت الآية فى ترك الجهر بالقراءة خلف الأمام وهو قول أبى حنيفة وأصحابه .

والجمال فى الآية أنه عبر بلفظ استمعوا ولم يقل : اسمعوا ، لأن الاستماع عبارة عن كونه يحيط بذلك الكلام المسموع على الوجه الكامل كما قال تعالى لموسى : ﴿ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ ولم يقل فاسمع ولذا حكى عن الكفار قولهم (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) فهم ينهون بعضهم عن مجرد السماع لا الاستماع والإحاطة بمعانيه ، وهم لا يقصدون الإحاطة وإدراك المعانى وقد يكون الخطاب فى قوله (فاستمعوا له وأنصتوا) للكفار لأنهم لما قالوا : (لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه) ناسب أن يأمرهم بالاستماع والسكوت حتى يمكنهم الوقوف على ما فى القرآن من الوجوه

من أسرار النظم القرآني
آيات وعبر

البالغة الإعجاز ويكون ذلك احتجاجاً على كونه معجزا على صدق نبوته ولذا ختم الآية بقوله (لعلكم ترحمون) أى لعلكم تطلعون على ما فيه من دلائل معجزة فتؤمنوا بالرسول فتكونوا مرحومين [1] .

❀❀❀

(١) الفخر الرازى ٨ / ١٠٥ .

الفرق بين يعلمون ويشعرون

كثر فى القرآن دوران الكلمتين فى ختام الآيات . فهل هناك فرق بينهما ؟ .

يقال شعر بالشئ ومصدره : شعراً وشِعْرةً وشَعْرةً وشُعورا أى : علمت به وفطنت له . ومنه قولهم : ليت شِعرى وكأنه مأخوذ من الشِّعار وهو الثوب الذى يلى الجسد فكأن قولك : شعرت به أى علمته علم حسن فهو نوع من العلم . ولهذا لم يوصف الله به .

ولذا سمى الشاعر بهذا الوصف لدقة معرفته فالشعر اسم للعلم الدقيق ويطلق على الكلام الموزون المقفّى . وسمى شاعرا لفطنته .

والمشاعر : الحواس . وقوله تعالى : ﴿ .. وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ الزمر (٥٥) ونحوه معناه: لا تدركونه بالحواس .

ولو قال فى كثير مما جاء فيه (لا يشعرون) : لا يعقلون أو لا يعلمون لا يجوز لأن كثيرا مما لا يكون محسوسا قد يكون معقولا أو معلوما .

وقوله تعالى فى صفة الكفار : ﴿ .. وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ القصص ١١ أبلغ فى الذم للبعد عن الفهم من وصفهم بأنهم لا يعلمون لأن البهائم قد تشعر حيث كانت تحس .

فكأنهم وصفوا بنهاية الذهاب عن العلم والفهم . ولذا جاء قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ البقرة (١٥٤) .

ولم يقل : لا تعلمون لأنه ليس كل ما علموه يشعرون به ويحسونه بحواسهم فهم علموا بأخبار الله عنهم أنهم أحياء فتحقق العلم . ولكن نفى عنهم الشعور ، والإحساس بذلك .

فجاء قوله : ولكن لا تشعرون دون (لا تعلمون) [1] .

❁❁❁

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ..﴾ فاطر ٣٩ .

وفى الأنعام : ﴿ .. خَلَائِفَ الْأَرْضِ .. ﴾ .

لأن آية الأنعام تقدمها سياق النعم عليهم فى قوله تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .. ﴾ إلى قوله ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .. ﴾ فناسب الخطاب لهم بأنهم خلفاء الأرض ما لكون لها . وفيه من التفخيم لهم ما ليس فى آية فاطر .

لأنه ورد فى آية فاطر خلائف فيها ، وليس فى ذلك من التمكن والتصرف ما فى قوله : خلائف الأرض [2] .

❁❁❁

(١) البرهان ٤ / ١٥٨ ، البصائر ٢ / ١٢٤ .

(٢) كشف المعانى ٢٠٣ .

ومن مظاهر العدل فى القرآن الكريم، أى الإتيان بلفظ مكان لفظ آخر هو الأحق بالذكر . ما جاء من المصادر التى توضع مكان المصدر الأصلى للفعل والأصل فى المصدر أن يجئ إتباعا لفعله مثل قوله تعالى: ﴿...وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ (سورة النساء ١٦٤) هذا هو الأصل، وتكليم بوزن تفعيل وهو مصدر كلّم بوزن فعّل .

أما ما جاء غير ذلك فعلى غير الأصل، نحو قوله تعالى: ﴿...وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا...﴾ (سورة آل عمران ٣٧) ومصدر أنبت هو إنبات .

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (سورة نوح ١٧) والأصل إنباتا .

وقوله: ﴿...وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ (سورة المزمل ٨) والأصل: تبتّلا .

وقوله: ﴿...فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا...﴾ (سورة المائدة ١١٥) والأصل: تعذيبا .

وقوله: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾ (سورة الحديد ١١) والأصل إقراضا .

وقوله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ...﴾ (سورة آل عمران ٣٧) والأصل: تقبُّل .

وقوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ...﴾ (سورة يونس ١١) والأصل: تعجيلهم .

من أسرار النظم القرآني
آيات وعبر

والنحاة يقولون فى ذلك إن هذا المصدر لفعل دل عليه الفعل المذكور، وتقدير ذلك مثلا: نبتم نباتا فلماذا قرن المصدر فى كتاب الله بغير فعله ؟

يقول الزمخشرى: « فالفائدة والله أعلم فى اقتران قوله نباتا بقوله أنبتكم التنبيه على تحتم نفوذ القدرة فى المقدور وسرعة إمضاء حكمها حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم أى إذا وجد من الله الإنبات وجد لهم النبات حتما فكان أحد الأمرين عين الآخر فقرن به » .[1]

وقال الراغب[2]: « قال الله: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ﴾ ولم يقل تقبّل للجمع بين الأمرين التقبل الذى هو الترقى فى القبول، والقبول الذى يقتضى الرضا والإثابة » .

✿✿✿

قوله تعالى: ﴿...حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا...﴾ (سورة الزمر ٧٣)

﴿... حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا ...﴾ (سورة الزمر ٧١) .

فى أهل الجنة قال: وفتحت أبوابها بالواو . وترك الواو فى أهل النار ؛ لأنها مغلقة، وكان مجيئهم شرطا فى فتحها . وجاءت الواو فى: (وفتحت) مع

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٢٧، البرهان ٢ / ٣٩٧ .

(٢) المفردات ٣٩٢ .

أهل الجنة ؛ لأنها واو الحال كأنه قال: جاءوها وهى مفتحة لهم الأبـواب . كما قال تعالى: جنات عدن مفتحة لهم الأبواب .

والعادة جرت فى إهانة المعذبين بالسجون بإغلاق الأبواب حتى يردوا عليها، وإكرام المنعمين بإعداد فتح الأبواب لهم اهتماما، وإكراما لهم وتعظيما[1]

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا ...﴾ (سورة البقرة ١٢٦)

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ...﴾ (سورة إبراهيم ٣٥) .

فالأولى نكرة (بلدا) والثانية معرفة: البلد ؛ لأن الأولى فى البقرة ذكر قبله: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً ...﴾ فذكر البيت معرفة فقال بعده (بلدا آمنا) وفى إبراهيم قال: ﴿...بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ...﴾ نكرة فجاء بعده (البلد آمنا) معرفة فالأولى معرفة بعدها نكرة، وفى الثانية نكرة بعدها معرفة، وهذا من باب التنوع .

وقيل إنه فى الدعوة الأولى فى البقرة كان مكانا فطلب منه أن يجعله بلداً آمنا، وفى الدعوة الثانية كان بلدا غير آمن فعرفه وطلب له الأمن .[2]

۞۞۞

(١) البرهان ٣ / ١٨٩، كشف المعانى ٣١٧ .

(٢) البرهان ٢ / ٦٤، كشف المعانى ١٠٥ .

﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ...﴾ (سورة البقرة ١٣٦) .

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا ...﴾ (سورة آل عمران ٨٤) .

فى البقرة قال (إلينا) ؛ لأن إلى ينتهى بها من كل جهة، والقرآن يـأتى المسلمين من كل جهة فناسب ذلك قوله: إلينا ؛ لأن الخطاب لهم: قولـوا، وفى آل عمران الخطاب للنبى بقوله: قل، والقرآن يأتيه من جهة العلو خاصة فناسب قوله: علينا .

وكذلك أكثر ما جاء فى جهة النبى ﷺ بـ (على) وأكثر ما جـاء فى جهة الأمة بـ (إلى) بقصد التعميم والتبليغ، وفى جهة الرسول بقصد تشريفه وتخصيصه ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ ...﴾ (سورة الزمر ٤١) حيث قصد الرسول بـ (عليك) لأن على تشعر بالعلو، وقـال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ...﴾ (سورة الزمر ٢)، حيث قصد عامة الأمة فقـال: إليك .[1]

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاء لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا ...﴾ (سورة الواقعة ٦٥) .

وقوله: ﴿لَوْ نَشَاء جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا ...﴾ (سورة الواقعة ٧٠) .

جاءت الأولى باللام (لجعلناه) والثانية بغير لام (جعلناه) فما الفرق ؟

(١) كشف المعانى ١٠٧، ٣١٣ .

والنحويون يقولون: جواب لو الشرطية يكثر اقترانه باللام إذا كان فعلا ماضيا مثبتا، وحدث هذا فى الآية الأولى، وفى الثانية لم يقترن باللام .

الجواب أن الله سبحانه أكد وعيده بجعل الزرع حطاما ؛ لأن الكفار تعبوا فى زرعه وسقيه فإهلاكه وجعله حطاما أشد عليهم وأشق على أنفسهم فأكد ذلك بدخول اللام . أما صيرورة الماء ملحا أسهل من جعل الحرث حطاما فالوعيد به لا يحتاج إلى توكيد باللام وقيل إن الوعيد بفقد المطعوم أشد وأصعب من فقد المشروب، من قبل أن المشروب يحتاج إليه تبعا للمطعوم، ولهذا أيضا قدمت آية المطعوم على المشروب . فأكد فقد المطعوم ولم يؤكد فقد المشروب .[1]

✿✿✿

قوله تعالى: ﴿ ...فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا ... ﴾ (سورة العنكبوت ٦٣) .

وقوله: ﴿ ...فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ... ﴾(سورة البقرة ١٦٤) .

الأرض يكون إحياؤها تارة عقب شروع موتها وتارة بعد تراخى موتها بمدة .

فآية العنكبوت تشير إلى الحالة الأولى التى أحيا فيها الأرض عقب موتها . فقال: من بعد موتها لأن (من) لابتداء الغاية .

(١) الكشاف ٤ / ٥٧ .

وفى آية البقرة فى سياق تعداد النعم من الله وقدرته فناسب ذكر إحياء الأرض بعد طول زمان موتها . فقال: بعد موتها .[1]

✿✿✿

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالصَّابِؤُونَ وَالنَّصَارَى ... ﴾ (المائدة ٦٩)، وكذلك فى سورة الحج .

وقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ ... ﴾ (سورة البقرة ٦٢) .

فى الآية نظرتان:-

الأولى: إعرابية، والثانية لفظية، أما الإعراب فإنه قال فى المائدة والحج الصائبون وهو معطوف على اسم إن (الذين آمنوا) . والجواب عن ذلك كأنه قال: إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا، والصائبون كذلك ؛ لأن الصائبين وهم أوغل الناس فى الكفر جعل لهم علامة وهى الرفع ليدل على تميزه عن غيره فى الكفر، وينقطع عن العطف على غيره، ويكون خبر هذا الصنف المنفرد بمعزل، تقديره مثلا: والصائبون كذلك، فيجئ كأنه ملحق على بقية الأصناف، فجعله مخالفا لإعراب ما قبله ليلفت النظر إليه .[2]

وأما النظرة الثانية فهى لفظية تتعلق بتقديم النصارى على الصائبين فى البقرة، وأفرهم فى المائدة والحج، والجواب عن ذلك أن التقديم قد يكون

(١) كشف المعانى ٢٩٢ .
(٢) الكشاف ١ / ٦٣٢ .

بالفضل والشرف، وقد يكون بالزمان . فروعى فى البقرة تقديم الشرف بالكتاب ؛ لأن الصائبين لا كتاب لهم . ولذلك قدم الذين هادوا فى جميع الآيات وإن كانت الصائبة متقدمة عليهم فى الزمان .

وأخر النصارى فى المائدة والحج ؛ لأن جمهور اليهود يوحد الله، والنصارى مشركون، ولذا قرن النصارى فى الحج بالمجوس والمشركين . فأخر النصارى لإشراكهم بمن بعدهم فى الشرك، وقدم عليهم الصائبون فى المائدة والحج لتقدم زمانهم عليهم .[1]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ... ﴾ (سورة الأعراف ١٦٠) .

قال اثنى عشرة (وهو عدد مؤنث) وتمييزه يأتى مؤنثا كذلك ولكن جاء (أسباطا) والسبط مذكر . والأسباط أولاد الولد، وكانوا اثنى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولدا من ولد يعقوب . فلماذا لم يقل اثنى عشر سبطا .

والجواب: قطعناهم اثنى عشرة قبيلة . وكل قبيلة أسباط لا سبط، فوضع أسباط موضع قبيلة .

وقوله: (أمما) بدل من اثنى عشرة . بمعنى وقطعناهم أمما . والمعنى: وقطعناهم اثنى عشرة فرقة أسباطا ويكون التمييز هو (فرقة) وأسباط بدل .[2]

(١) كشف المعانى ١٠١ .

(٢) معانى الفراء ٣٩٧/١، البحر المحيط ٤٠٦/٤، الكشاف ٢ / ١٢٤، التصريح ٤٨٦/٤ .

قوله تعالى: ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ ... ﴾ (سورة البقرة ١٧) .

فى الآية عدة نظرات :-

الأولى: لفظ استوقد وهو أبلغ فى هذا الموضع من (أوقد) بما دلت عليه الهمزة والسين والتاء من طلب ومشقة .

الثانية: (ذهب الله بنورهم) لم يقل: (أذهب الله نورهم)، ولا (أخذ الله نورهم)، ولا انقطع نورهم، ولم يقل (ذهب نورهم) بإسناد الذهاب إلى النور نفسه، لأن معنى (أذهب الله نورهم) أى أزاله وجعله ذاهبا، فالإذهاب بالشئ يشعر بمنع عودته بخلاف (ذهب به) . لأن معنى (ذهب به) استصحبه وأخذه معه ومضى به، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ ... ﴾، وقال: ﴿ ... إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ... ﴾ والمعنى حينئذ: أخذ الله نورهم وأمسكه فهو أبلغ من الإذهاب .[1]

الثالثة: لم يقل: ذهب الله بضوئهم بعد قوله: فلما أضاءت . ولم يقل: ذهب الله بنارهم بعد قوله: استوقد نارا .

والجواب أن ذكر النور أبلغ ؛ لأن الضوء هو نور وزيادة فلو قيل ذهب الله بضوئهم لأوهم ذهاب الزيادة فقط وبقاء ما يسمى نورا وهو الأصل، والغرض إزالة النور عنهم وطمسه .

(١) الكشاف ١ / ٢٠٠، ٢ / ٢٢٥، البرهان ٣ / ٣٨٥ .

فالنور أعم من الضوء إذ يقال على القليل والكثير وإنما الضوء يقال على النور الكثير. لذا قال: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا...﴾ فجعل الضوء مع الشمس، والنور مع القمر .[1]

ثم قال: (وتركهم فى ظلمات) جمع الظلمات وهى نكرة فى مقابل إفراد النور ؛ لأن الحق واحد بخلاف طرق الباطل فهى متعددة .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ...﴾ (سورة آل عمران ١٥٩) .

وقوله: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ...﴾ (سورة المائدة ١٣) .

قال النحويون إن (ما) زائدة فى قوله (فبما) ويريدون بذلك الزيادة من جهة الإعراب فقط لا من جهة المعنى، فالزائد له أثر فى المعنى، وبوجوده يحصل التوكيد والواضع الحكيم لا يضع شيئا إلا لفائدة .

وزيادة (ما) فى الآيتين لإفادة الحصر كأنه قال: ما لنت لهم إلا برحمة من الله، وما لعنهم الله إلا لأجل نقض الميثاق . ولو لم ترد (ما) لجاز أن يكون اللين حاصلا بسبب الرحمة وغيرها فلما زادت (ما) قطعت بأن اللين لم يكن إلا بسبب الرحمة . ولذا قال أبو حيان: « لكن زيادة (ما) للتوكيد لا ينكره من له أدنى تعلق بالعربية » .[2]

(١) الكشاف ٢ / ٢٢٥، التفسير القيم لابن القيم ١١٦ .

(٢) البحر المحيط ٣ / ٤٠٧، البرهان ٣ / ٧٢ .

ومن مجئ الحرف الزائد فى القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ...﴾ (سورة العنكبوت ٣٣) .

فزادت (أن) تنبيها وتأكيدا على أن الإساءة كانت تعقب المجئ، و(أن) صلة أكدت وجود الفعلين مرتبا أحدهما على الآخر فى وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كأنهما وجدا فى جزء واحد من الزمان، ولما تفيد وقوع الفعل الثانى عقب الأول، والحرف الزائد (أن) يؤكد هذا المعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا...﴾ سورة يوسف (٩٦) فإلقاء القميص على وجه يعقوب كان عقب مجئ البشير، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي...﴾ (سورة القصص ١٩) .

وأيضا توحى زيادة (أن) طول مدة الفعل الذى يليها فإن مجئ الرسل إلى قوم لوط كان بعد انتظار الله لهم ونصائح الرسل لهم وإصرارهم على فعل الفاحشة .

وأيضا مجئ البشير إلى يعقوب بعد طول الحزن وتباعد المدة فناسب ذلك زيادة (أن) لما فى مقتضى وضعها من التراخى .[1]

ومن الزيادة أيضا قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ...﴾ (سورة الأعراف ١٢) .

والمعنى: (ما منعك أن لا تسجد) فزادت (لا) لأن المانع من الشئ آمر للممنوع ألا يفعل كأنه قيل: ما الذى قال لك لا تسجد، أو ما الذى أمرك،

(١) المغنى ٤٧، البرهان ٤ / ٢٢٧ .

ويوضح هذا أن لا الناهية لا تصاحب (أن) الناصبة بخلاف لا النافية وقد يكون لفظ (منعك) من المَنعة أى الحماية والقوة والغرور كأنه قال: ما الذى جعلك فى منعة وحماية وقوة وتخالف أمرى فكنى عن ذلك بقوله (ما منعك) تهكما . أو قد يكون المعنى: ما دعاك ألا تسجد، ونظيره: ﴿...مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۝ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ...﴾ (سورة طـه ٩٢، ٩٣) وبدليل الآية الأخرى: ﴿...مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ ...﴾ (سورة ص ٧٥) .

ومن الزيادة أيضا زيادة (من)[١] فى قوله تعالى: ﴿...وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا...﴾ (سورة الأنعام ٥٩) فدخول (من) يدل على عموم الجنس، والتنصيص على العموم . فإذا قلت: ما جاءنى من رجل فإنه قبل دخول (من) يحتمل نفى الجنس كله ونفى واحد من الرجال ولكن بعد دخول (من) تعيّن نفى الجنس.

ومنه قوله تعالى: ﴿... مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ...﴾ (سورة الملك ٣) .

وقوله: ﴿...هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ (سورة الملك ٣) .

وقوله: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ ...﴾ (سورة المؤمنون ٩١) .

وقوله: ﴿... مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ...﴾ (سورة الأنعام ٣٨) .

❁❁❁

(١) انظر المغنى ٣١٦ .

قوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ ...﴾ (سورة المائدة ٥٢)

تأمل قوله (يسارعون) ولم يقل (يسرعون) وقال (فيهم) ولم يقل (إليهم) ولذلك فوائد عظيمة . وهى أن (يسارع) تدل على المشاركة استعملت بدلا من (يسرع) للدلالة على مبالغة مرضى القلوب من المسلمين فى الإقبال على اليهود والنصارى وموالاتهم، وأنهم يتسابقون إلى ذلك، ولأن الفعل (يسارعون) ضمن معنى فعل آخر وهو (يدخلون) ليكون المعنى: يسارعون بالدخول فى الكفار والارتماء فى أحضانهم والاتصال بهم أى يدخلون فيهم ويصبحون منهم .[١]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (سورة المؤمنون ٤) .

لم قال (فاعلون) ولم يقل: مخرجون أو مؤدون ولكن قال (فاعلون) ليدل على سرعة من غير توان فى دفع حق الفقير . لأن الفعل أعم من العمل . والفعل يدل على سرعة الشئ . انظر إلى قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ (سورة الفجر ٦)، وقوله: ﴿...وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ...﴾ (سورة إبراهيم ٤٥)، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ (سورة الفيل ١) . فإنها هلاك من غير بطء . وافعلوا الخير بمعنى أسرعوا، والمقصود بقوله (فاعلون) المداولة على الزكاة لا أنها مرة واحدة،

(١) مجاز القرآن ١ / ١٣٤ .

وهناك أيضا سر لطيف فى لفظ (فاعلون) هنا هو أنهم يسعون فى الحياة للنماء والحركة ليكسبوا أموالهم بسبب السعى والفعل ثم يؤدون زكاة ما كسبوا .[1]

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ... ﴾ (سورة التوبة ٦٠) .

لم عدل عن اللام إلى (فى) فى الأربعة الأخيرة أى قال: الصدقات للفقراء فعبر باللام ثم قال فى الأربعة الأخيرة (وفى الرقاب) إلى آخره بـ (فى) .

الجواب أن هذا إيذان بأنهم أكثر استحقاقا للتصدق عليهم ممن سبق ذكرهم باللام ؛ لأن (فى) للوعاء تفيد الظرفية فنبه بذكرها على أنهم أحق لوضع الصدقات فيهم فهم ظرف ووعاء لاستقرار الصدقات فيه .

وذلك لما فى فك الرقاب من الرق والأسر، وفك الغارمين من الغرم، والغازى الفقير، وابن السبيل والغريب عن الأهل، وهؤلاء الأربعة لا يملكون ما يصرف إليهم وإنما هى مصالح تتعلق بهم فالمال الذى يصرف فى فك الرقاب يأخذه السادة البائعون فليس نصيبهم مصروفا إلى أيديهم حتى يعبر باللام المشعرة بالتملك لما يصرف نحوهم وكذلك الغارمون أصحاب الدين تصرف لهم الصدقات تخليصا لدينهم وليس لهم ولذا كرر (فى) مع هؤلاء .

(١) الكشاف ٣ / ٢٦، البرهان ٤ / ٨٣ .

وتكرار حرف الظرف (فى) داخلا على (سبيل الله) دليل على ترجيحه على الرقاب والغارمين .[1]

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ ... كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ... ﴾ (سورة البقرة ٢٠) .

لم أتى قبل الفعل أضاء بـ (كلما)، وقبل الفعل أظلم بـ (إذا) ؟

لأن تكرار الإضاءة يستلزم تكرار الإظلام فلم يأت مع الظلمة بـ (كلما) .

وأيضا مراتب الإضاءة مختلفة متنوعة . فذكر (كلما) يفيد تعدد أنواع الإضاءة . أما الإظلام فهو نوع واحد، فلم يأت فيه بصيغة التكرار (كلما) ؛ لضعف التعدد فيه وإن حصلت صورته[2] ولأنهم أيضاً حريصون على وجود ما غرضهم به قائم ومتصل من إمكان المشى فى الإضاءة فكلما صادفوا منه نورا مشوا فيه، وليس كذلك التوقف عن الظلمة .

۞۞۞

(١) الكشاف ٢ / ١٩٨، البرهان ٤ / ١٧٥ .

(٢) البرهان ٤ / ٢٠٤، الكشاف ١ / ٢٢٠ .

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (سورة مريم ٢٩) .

تأتى (كان) فى لغة العرب ناقصة وهى التى ترفع المبتدأ وتنصب الخبر مثلا قولك: كان القمر بازغا وكان محمد قائما . فقيام محمد كان فى زمن مضى .

أما مع صفات الله تعالى فإن (كان) تدل على الدوام وعلى استمرار مضمون خبرها فى جميع الأزمنة لأن صفاته مستمرة غير منقطعة مثل قوله تعالى: ﴿...وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (سورة الفرقان ٥٤)، ﴿...وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (سورة النساء ١٣٤)، ﴿...وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (سورة النساء ٩٦) .

وقد تأتى (كان) على الدوام فى غير صفات الله تعالى نحو قوله تعالى: ﴿...إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاء سَبِيلاً﴾ (سورة الإسراء ٣٢) .

وقد تأتى (كان) بمعنى (صار) أى التحول من حال إلى حال . مثل قوله تعالى: ﴿...فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (سورة البقرة ٣٤) . أى: صار منهم، لأنه قبل الأمر بالسجود لم يكن منهم.

وقد تأتى (كان) تامة مثل غيرها من الأفعال المتصرفة فتكون بمعنى وجد وحدث فترفع فاعلا مثل قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ...﴾ (سورة البقرة ٢٨٠) . أى إن وجد ذو عسرة، وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ ...﴾ (سورة البقرة ١٩٣) أى: لا توجد فتنة .

أما فى آية مريم التى معنا ﴿... مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (سورة مريم ٢٩) .

فإن (كان) لا يصح أن تكون ناقصة بمعنى حدوث ذلك فى الزمن الماضى، فإن عيسى يشاهد الآن وهو صبى، وقالوا كيف نكلمه وهو فى هذه الحالة ولذلك فإن (كان) هنا تامة بمعنى وجد ويكون (صبيا) حالا . وقيل إن (كان) زائدة أى: كيف نكلم من فى المهد صبيا، وزيدت كان للتوكيد، والمعنى: كيف نكلم من تأكد استقراره فى المهد صبيا، ولو لم نقدر (كان) زائدة أو تامة لما كان فيه معجزة لعيسى ؛ لأن الرجال كلهم كانوا فى المهد .[1]

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ ...﴾ (سورة آل عمران ١٩١) .

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا ...﴾ (سورة يونس ١٢) .

لم بدأ بالقيام ثم القعود ثم الجنب فى الآية الأولى وبدأ بعكس ذلك فى الثانية، أى: بالجنب ثم القعود ثم القيام ؟

لأن الذى يصيبه الضرر لا يزال داعيا حتى ينقضى عنه الضر فهو يدعو الله فى كل حالاته أولها وهو مضطجع عاجز عن النهوض، ثم وهو قاعد لا يقدر على القيام ثم فى حالة قيامه إذا استطاع، أما فى آية آل عمران فهى تتحدث عن الصلاة فوجب فيها تقديم القيام وهو شرط الصلاة عند القدرة

(١) مجاز القرآن ٢ / ٧، البرهان ٣ / ٧١، المفردات ٤٤٥ .

عليه ثم القعود عند عدم القدرة على القيام، ثم على جنبه عن العجز عن القعود .[1]

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ...﴾ (سورة البقرة ٤٨) .
وفى آية أخرى يقول: ﴿... وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ ...﴾ (سورة البقرة ١٢٣) .

فى الآية الأولى قدم نفى قبول الشفاعة على أخذ العدل وفى الثانية قدم نفى قبول العدل على الشفاعة . وفى الأولى قال: لا يقبل منها شفاعة، وفى الثانية قال: ولا تنفعها شفاعة، فغاير بين اللفظين فهل ذلك من باب التوسع فى الكلام والتنقل من أسلوب إلى آخر كما هى عادة العرب .

وبيان ذلك أن الآية الأولى تكرر منها ذكر كلمة (نفس) ثم أتى بضمير فى قوله (منها) يحتمل رجوعه إلى النفس الأولى، أو الثانية . وإن كانت القاعدة عود الضمير إلى الأقرب إلا أنه قد يعود إلى غيره . فقوله: ولا يقبل منها شفاعة، الضمير راجع إلى النفس الأولى وهى الشافعة لغيرها، فأخبر الله تعالى أن الشفاعة غير مقبولة من النفس الأولى للنفس الثانية، أى غير مقبولة من الشافع للمشفوع له .

(١) البرهان ٣ / ٤٧٢، الكشاف ٢ / ٢٢٧ .

أما قوله: (ولا يؤخذ منها عدل) فإن كان الضمير راجعا إلى الشافع أيضا، فقد جرت العادة أن الشافع قد يريد أن يدفع شيئا إلى المشفوع عنده ليؤكد قبول شفاعته، ولهذا قدم ذكر الشفاعة على دفع العدل لأن دفع العدل وهو الفداء ثمرة مترتبة على قبول الشفاعة، وإن كان الضمير راجعا إلى النفس الثانية وهى المشفوع له فإنه تعالى نفى أن يؤخذ منه العدل لأن الشفاعة لم تقبل وأما الآية الثانية التى قدم فيها نفى قبول العدل على الشفاعة، فالضمير فى قوله: (ولا يقبل منها عدل) راجع إلى النفس الثانية وهى المشفوع له وهى صاحبة الجريمة ؛ لأن العادة جرت على أن دفع العدل من صاحب الجرم يكون مقدما على الشفاعة فيه فناسب ذلك تقديم العدل وهو الفداء من المشفوع له على الشفاعة . فالآية تبين أن النفس المجرمة لا يقبل منها فداء ولا تنفعها شفاعة شافع فيها ولهذا قال فى الأولى (ولا يقبل منها شفاعة) والثانية (ولا تنفعها شفاعة) . فقوله تعالى: (ولا يقبل منها شفاعة) الضمير راجع إلى النفس الأولى الشافعة لغيرها، وقوله: (ولا تنفعها شفاعة) الضمير راجع إلى النفس الثانية وهى المشفوع لها فالشفاعة إن قبلت من النفس الأولى ستنفع النفس الثانية، وقد نفى الله قبول الشفاعة من النفس الأولى ولذلك لا تنفع النفس الثانية .

وقد يقال إن الناس متعادلون فمنهم من يختار أن يُشفع فيه قبل تقديم الفدية، ومنهم من يختار الفدية مقدمة على الشفاعة . فذكر سبحانه القسمين فقدم الشفاعة باعتبار طائفة، وقدم العدل باعتبار طائفة أخرى . والله أعلم بحكمه .[1]

۞۞۞

(١) البرهان ١ / ١٢٤، كشف المعانى ٩٤ .

قوله تعالى: ﴿ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ... ﴾ (سورة آل عمران ١٢٠) .

وصف الحسنة بالمس، والسيئة بالإصابة . لأن المس أقل تمكنا من الإصابة وأقل درجاتها فكأنه قال: عند حصول أقل درجات الحسنة هم تسيئهم ويحسدونهم عليها، أما إن تمكنت منهم المصيبة فهم يفرحون ويشمتون ولا يرثون لحالهم[1] . سبحان من كان هذا كلامه .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ ... ﴾ (سورة الحج ٢) .

الأصل فى لغة العرب أن يفرق بين المذكر والمؤنث بعلامة مثل تاء التأنيث . فيقال: مؤمن ومؤمنة وتائب وتائبة، فإذا كان الوصف خاصا بالمؤنث لا تدخل فيه تاء التأنيث حيث لا يشترك المذكر معه فيه، مثل طالق وحائض وحامل ومرضع .

فلا يقال: طالقة ولا حائضة ولا مرضعة ولكن جاءت هذه الآية: (تذهل كل مرضعة) فلماذا لحقت تاء التأنيث بكلمة (مرضعة) وهى وصف خاص بالمؤنث ليس للمذكر فيه نصيب، وكان الأولى أن يقول: مرضع .

والجواب عن ذلك أن المرضع من غير تاء هى التى من شأنها الإرضاع ومهيأة له وإن لم تكن مباشرة لحالة الإرضاع فى ذلك الوقت، أما المرضعة

(١) الكشاف ١ / ٤٥٩ .

بالتاء هى التى فى حال الإرضاع ملقمة ثديها للصبى والمرأة فى هذه الحالة تكون أشد شفقة وعطفا على ولدها الذى ترضعه فذهولها عنه وهى ترضعه حينئذ يكون من هول يوم القيامة وشدة فزعها من الزلزلة، ويؤيد ذلك قوله: (عما أرضعت) .

ومثل ذلك لفظ (الحائض) من غير تاء، أى التى بلغت سن الحيض وليس التى فى حالة حيض فقد روت عائشة رضى الله عنها عن والدها قول النبى ﷺ: " لا يقبل الله صلاة حائض إلا بخمار " . فليس المراد هنا الحائض التى فى حال حيض، لأن هذه لا يقبل الله صلاتها لا بخمار ولا دونه ؛ إذ لا صلاة عليها، وإنما المراد بالحائض هنا التى بلغت سن الحيض .[1]

وتأمل السر البديع فى قوله: ﴿ ...وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا ... ﴾ (سورة الحج ٢) ولم يقل: (كل حامل) لأن الحامل قد تطلق على المهيأة للحمل أو من هى فى أول حملها، فإذا قيل (ذات حمل) فهو لمن ظهر حملها وصلح للوضع وبهذا يتضح شدة زلزلة الساعة، والهول الذى يذهل المرضعة التى ترضع، والحامل التى ظهر حملها وصلح للوضع والسقط .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ ... ﴾ (سورة الأعراف ١٥٤) .

والأصل: ولما سكت موسى عن الغضب، ولكن لما كان الغضب متمكنا من موسى حتى كان كل ما وقع منه صادرا عن الغضب، كان

(١) الكشاف ٣ / ٤ .

الغضب هو الذى أمره بذلك ويقول له أفعل كذا وكذا أى ألق الألواح وخذ برأس أخيك ولذا قدم (عن موسى) على الغضب .[1]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ ... ﴾ (سورة الإنسان ٦) .

أى يشرب منها . وقيل ضمن يشرب معنى يروى ؛ لأن الشرب لا يتعدى بالباء، فأريد باللفظ الرى والشرب معا . مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ... ﴾ (سورة الشورى ٢٥) . جاء بـ (عن) لأنه ضمن يتوب معنى يعفو ويصفح . وقوله تعالى: ﴿ ... أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ... ﴾ (سورة المائدة ٥٤). لأنه يقال ذل له لا عليه، ولكنه ضمن معنى التعطف والتحنن .[2]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ... ﴾ (سورة البقرة ١٧٩) .

كان القياس: بالقصاص لأنه سبب الحياة، فالباء للسببية، ولكنه فضل (فى) الظرفية لبيان أن القصاص مكان وظرف للحياة وأن الحياة كلها ثابتة فى القصاص . والآية مسوقة للترغيب . ولو قال (ولكم بالقصاص حياة) بالباء لخرج من ذلك العفو والصفح، ولكن (فى) تجيز العفو فى القصاص .

---

(١) الكشاف ٢ / ١٢٠ .
(٢) البرهان ٣ / ٣٣٨ .

وجعل القصاص معرفة والحياة نكرة، أى حياة عظيمة ونافعة وعامة، لأن القصاص سبب حياة نفسين، نفس القاتل إذا هم بالقتل وعلم بالقصاص ارتدع وسلم صاحبه من القتل وسلم هو من القصاص . فلذا نكر الحياة لأنها أوسع وأعم .[1]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ ... إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة الأعراف ٥٦) .

رحمة الله مؤنثة فى اللفظ فكان القياس أن يقول قريبة بالتأنيث لمناسبة رحمة .

والجواب أنه قد يكون ذكّر (قريب) على تفسير الرحمة بالعفو والإحسان والغفران فحمل الخبر وهو قريب على المعنى ويؤيده قوله: (هذا رحمة من ربى) ولم يقل هذه رحمة، وقد يكون ذلك للفرق بين القريب بمعنى النسب، والقريب من المكان . فيقال هذه قريبتى فى النسب، وقريبى من المكان وقد يكون ذلك بتقدير المكان، أى: إن رحمة الله مكان قريب . ويرى الأخفش هنا أن الرحمة بمعنى المطر، فذكر قريب لأجله، وقيل قريب على وزن فعيل يستوى فيه، المذكر والمؤنث، مثل قوله تعالى: ﴿ ...وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (سورة يس ٧٨)، ولم يقل (رميمه) .

وقيل من حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، أى: إن رحمة الله شئ قريب، ونظيره قوله: ﴿ ...وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ (سورة

---

(١) البرهان ٣ / ٣٠٨، الكشاف ١ / ٣٣٣ .

الشورى ١٧) ولم يقل قريبه لأن الساعة مؤنثة ؛ لأنها بمعنى الوقت . أو بمعنى إتيانها قريب[١] . والله أعلم .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ... ﴾ (سورة الأنعام ٩٥) .

كيف قال: (مخرج الميت من الحى) بلفظ اسم الفاعل بعد قوله يخرج الحى من الميت بلفظ المضارع، فهل (مخرج) معطوفة على (يخرج) .

الجواب أن (مخرج) معطوف على (فالق الحب والنوى) لا على الفعل (يخرج) ؛ لأن يخرج الحى من الميت مبين لجملة (فالق الحب والنوى) ومناسب له فى المعنى لأن فلق الحب والنوى من جنس إخراج الحى من الميت وكان الأصل فى هذه الآيات ورودها بصيغة اسم الفاعل من قوله فالق الحب والنوى وفالق الإصباح ومخرج الحى من الميت، وجاعل الليل سكنا، إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فى هذا الوصف وحده وهو (يخرج الحى من الميت) إرادة لتصوير إخراج الحى من الميت، واستحضاره فى ذهن السامع، وهذا التصوير يتأتى بالفعل المضارع الدال على التجدد دون اسم الفاعل أو الفعل الماضى . ولا شك أن إخراج الحى من الميت أشهر فى القدرة من عكسه فكان جديرا بأن يبدأ به، والنوع الثانى وهو إخراج الميت من الحى ناشئ عنه .[٢]

---

(١) البرهان ٣ / ٣٦٠، مجاز القرآن ١ / ٢١٦، بصائر ذوى التمييز ٤ / ٢٥٢ .
(٢) البرهان ٢/٤٦٧، كشف المعانى ١٦٣ ، الكشاف ٢/٣٧ .

ومن التعبير بالفعل المضارع الدال على التجدد واستحضار الصورة قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ... ﴾ (سورة الحج ٦٣).

قال (تصبح) بدلا من أصبحت قصدا للمبالغة فى تحقيق إخضرار الأرض، إذ هو المقصود بإنزال الماء وكان القياس أن يقال: أنزل وأصبحت ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ ... ﴾ سورة فاطر (٩) .

قال (تثير) مضارع، وقبله: أرسل، وبعده (فسقناه) وهما ماضيان . وذلك مبالغة فى تحقيق إثارة الرياح للسحاب للسامعين وتصوره فى أذهانهم كأنه صوره حاضرة مشاهدة .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ...هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُم ... ﴾ (سورة فاطر ٣) .

قال: (يرزقكم) بلفظ المضارع الدال على التجدد والحدوث ولو قال (رازقكم) بصيغة الاسم لما أفاد هذا التصوير الجميل، فالرزق يتجدد شيئا بعد شئ .[١]

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ...إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۞ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ... ﴾ (سورة البقرة ١٤، ١٥) .

---

(١) المغنى ٦٥٣، البرهان ٣ / ٣٧٩، ٣ / ٣٧٤ .

كان القياس أن يقال: الله مستهزئ بهم بصيغة الاسم كما قالوا هم (نحن مستهزئون) بصيغة الاسم ولكن قيل: يستهزئ بصيغة المضارع للدلالة على حدوث الاستهزاء بهم وتجدده وقتا بعد وقت . وهكذا كان بلاء من الله لهم يترل عليهم متجددا .(١)

وكما يكون التعبير بالمضارع بعد الاسم دالا على التجدد واستحضار الصورة فإن التعبير بالفعل الماضى فى بعد الاسم كذلك(٢) فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ۞ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴾ (سورة العاديات ٣، ٤) فعطف الفعل (أثرن) على الاسم (فالمغيرات) والحكمة فى ذلك تصوير هذا الفعل فى النفس، وذلك يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم لما بينهما من التخالف وهو أبلغ من التصوير بالأسماء المتناسقة .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴾ (سورة الفاتحة ٦، ٧) .

فى الآية وقفات:-

الأولى: لماذا لم يقل: اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم من أول الأمر .

الثانية: لماذا عبر عن المؤمنين بالاسم الموصول: (الذين أنعمت عليهم) ولم يقل: صراط المنعم عليهم كما قال: المغضوب عليهم ؟ ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم .

(١) الكشاف ١ / ١٨٨ .
(٢) الكشاف ٤ / ٢٧٨ .

الثالثة: لم وصف الهداية بالنعمة ؟

الجواب عن الأولى: فائدته التوكيد لما فيه من التكرير وإشعار بأن الطريق المستقيم هو طريق المسلمين على أبلغ وجه . كما تقول: هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم فلان، فيكون ذلك أبلغ فى وصفه بالكرم والفضل من قولك ؛ هل أدلك على فلان الأكرم، الأفضل ؛ لأنك ذكرته أو لا مجملا وثانيا مفصلا، فجعلته علما فى الكرم والفضل .

أما الجواب عن الثانية: أنه عبر عن المؤمنين بالاسم الموصول لعلو شأنهم، وشهرتهم لكل قارئ وسامع .

وقال أنعمت عليهم بإسناد النعمة إلى ضمير رب العزة وعدل عن ذلك فى الغضب ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم . وذلك تأدبا فى الخطاب بإضافة الخير إلى الله تعالى . كما قال: بيدك الخير، ولم يقل والشر وإن كانا جميعا بيده، لكن الخير يضاف لله تعالى كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ (سورة الشعراء٨٠) ولم يقل أمرضنى، ثم قال: والذى خلقنى وقال: ﴿ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ (سورة الشعراء ٧٩) فأسند المرض إلى نفسه ولم ينسبه لله . وتأمل جواب الخضر عليه السلام حيث قال فى عيب السفينة: ﴿ ...فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا ... ﴾ (سورة الكهف ٧٩) فنسب العيب له، أما فى الغلام فقال: ﴿ فَأَرَدْنَا ... ﴾ (سورة الكهف ٨١) وفى الجدار قال: ﴿ ...فَأَرَادَ رَبُّكَ ... ﴾ (سورة الكهف ٨٢)، تأدبا مع ربه ومثل هذا قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ

بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (سورة الجن ١٠) فنسبوا الرشد لله، وحذف الفاعل مع الشر .[١]

الثالثة: عبر عن الهداية بقوله: أنعمت، كأن الهداية نعمة وهى لذة تميل النفس إليها .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ ... سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (سورة الكهف ٧٨) .

وقوله: ﴿ ...ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ (سورة الكهف ٨٢) .

وقوله: ﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴾ (سورة الكهف ٩٧) .

فى قصة الخضر قال فى الآية ما لم تستطع بالتاء وفى الثانية قال ما لم تسطع . ذكر التاء فى الأولى (تستطع) لأن الخضر وعد موسى أن يذكر له تأويل ما قام به ولما أوفى وعده وقص عليه الحكمة فى ذلك قال: ذلك (تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) فحذف التاء لأنه ذكرها فى الأولى فخفف من الثانى بدلالة الأول عليه وأيضا المقام فيه اختصار وإيجاز فحذف التاء .

أما فى قصة ذى القرنين فقد تعلق الفعل (اسطاعوا) بالمفعول المركب وهو (أن يظهروه) مصدر مؤول فناسب تخفيف الفعل معه . والمفعول (نقبا) مفرد خفيف فجاء الفعل معه (استطاعوا) كاملا دون حذف التاء وقد يكون

(١) الكشاف ١ / ٦٨، البرهان ٤ / ٥٩ .

قوله: (وما استطاعوا له نقبا) بعدم حذف التاء لمناسبة الشدة والمشقة فى نقب السد وهم لم يستطيعوا ذلك . ولذا ذكر التاء فى استطاعوا لبيان الشدة والمشقة فى ذلك فقابل الأثقل بالأثقل .[١]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ ... ﴾ (سورة هود ١١٣) .

لما نهى سبحانه عن الركون إلى الظالمين وهو الميل لهم والاعتماد عليهم أخبر أن عقابهم هو مَسّ النار دون الإحراق ؛ فالإحراق هو عقاب الظالم، والمس هو عقاب الراكن إلى الظالمين .

وانظر إلى بلاغة القرآن وروعة الأداء والبيان فى قوله تعالى: ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ ... ﴾ (سورة مريم ٤٥) .

انظر إلى أدب إبراهيم عليه السلام مع أبيه حين قال له إنى أخاف فلم يصرح له بأن العذاب لاحق به، فذكر الخوف، ثم قال أخاف أن يمسك بلفظ المس دون لفظ عقاب أو يصيبك عذاب، ثم ذكر العذاب منكرا، وقصد الاستعطاف فقال: عذاب من الرحمن، ولم يذكر صفة أخرى لله تعالى مثل الجبار أو المنتقم، وكلها ألفاظ توحى بالأدب، وتكررت كلمة الرحمن فى سورة مريم لأنه لما افتتح السورة بقوله: ﴿ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ (سورة مريم ٢) نبه بتكرار الرحمن الذى هو بصيغة المبالغة على عظمة رحمته وعمومها .

❁❁❁

(١) تفسير ابن كثير ٣ / ١٠٠، كشف المعانى ٢٤٤ .

قوله تعالى: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ (سورة الصافات ١٢٥) .

قال: (وتذرون) ولم يقل (وتدعون) ويدع بمعنى يذر ويترك . لأنه لو قال: (وتدعون أحسن الخالقين) بمعنى تذرون وتتركون فقد يلتبس ذلك على القارى، لأن قبلها: أتدعون بعلا، وتدعون بعلا من دعا وهو فعل مختلف عن تدعون بمعنى تتركون، فيتشابه الفعلان لو قرأ: (أتدْعون بعلا وتَدَعون أحسن الخالقين) لاسيما وخط المصحف الإمام لا ضبط فيه ولا نقط وأيضا إن معنى (يذر) أخص من (يدع) لأن يدع فيه معنى ترك الشئ اعتناء، وفيه لفظ الوديعة، وأما (يذر) فمعناه الترك مطلقا مع الإعراض والرفض، والسياق يناسب ذلك فأريد هنا التشنيع عليهم بأنهم أعرضوا عن ربهم، وقال الراغب: يذر الشئ أى يقذفه لقلة اعتداده به[1]، ولذا قال: (فذرهم وما يفترون) وقال: (وذروا ما بقى من الربا) (ويذرك وآلهتك) .

❂❂❂

قوله تعالى: ﴿ ...وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ... ﴾ (سورة آل عمران ٣٦) .

فإن الأصل والأقرب والقياس عند العامة أن يقال: (وليس الأنثى كالذكر) فقد دخلت فى الآية كاف التشبيه على المشبه دون المشبه به، ولكن الله عدل عن ذلك ؛ لأن المعنى: وليس الذكر الذى طلبته مريم كالأنثى التى وهبت لها . ففى علم الله مستقبلا أن الأنثى أفضل من الذكر ؛ لأنها ستكون أما لنبى الله عيسى صاحب المعجزة .[2]

(١) المفردات ٨ / ٥، الكشاف ٣ / ٣٥٢، البرهان ٣ / ٤٥٣ .

(٢) البرهان ٣ / ٤٢٦ .

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ ... قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ... ﴾ (سورة البقرة ٢٧٥) .

والأصل: إنما الربا مثل البيع ؛ لأن الكلام فى الربا لا فى البيع، لكن عدلوا ذلك لأنهم من جرأتهم جعلوا الربا أصلا والبيع ملحق به فى الجواز وقد بلغ اعتقادهم فى حل الربا أنهم جعلوه أصلا فى الحل حتى شبهوا به البيع .[1]

❂❂❂

قوله تعالى: ﴿ ...فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ ... ﴾(سورة النحل٢٦)

فكيف قال: (السقف من فوقهم) والسقف لا يكون إلا من فوق ؟ لأن العرب تقول: سقط عليه موقع كذا إذا كان يملكه وإن لم يكن من فوقه بل تحته فدل قوله تعالى: (من فوقهم) على الفوقية الحقيقية لا المجازية التى تحتمل معنى (تحت) . وما أحسن المقابلة فى الآية من قوله: فأتى الله بنيانهم من القواعد لأنه سبحانه رفع الاحتمال الذى يتوهم أن السقف قد يكون من تحت ؛ لأن كثيرا من السقوف يكون أرضا لقوم وسقفا لآخرين فرفع سبحانه هذا الاحتمال بقوله (خر) ؛ لأن اللفظ يستعمل فيما هبط من أعلى إلى أسفل، وأيضا بقوله (عليهم)، ومن فوقهم، أى وقع عليهم وكانوا تحته .[2]

❂❂❂

(١) البرهان ٣ / ٤٢٧ .

(٢) الكشاف ٢ / ٤٠٧، ٣ / ٦٧، البرهان ٢ / ٤٤٢ .

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ ... ﴾ (سورة الأنعام ٧٤) .

القرآن غالبا لا يعنى بذكر الأشخاص أو الأماكن بل العبرة فيه بالقصص والعبر منها. فمثلا قوله: ﴿ ...اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... ﴾ (سورة البقرة ٣٥)، وهى حواء لأنه ليس غيرها . وقوله: ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ ... ﴾ (سورة يوسف٢١)، وهو العزيز . وقوله: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ... ﴾ (سورة المائدة٢٧) وهما قابيل وهابيل، وقوله:

وقوله: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ ... ﴾ (سورة البقرة٢٥٨) وهو النمرود وكان القرآن أحيانا يعظم بالوصف الكامل دون الاسم . ومن ذلك قوله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ ... ﴾ (سورة النور٢٢) والمراد أبوبكر الصديق، وقوله: ﴿ وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ ... ﴾ (سورة الزمر٣٣) يعنى محمد ﷺ، وقوله: ﴿ ..وَصَدَّقَ بِهِ .. ﴾ (سورة الزمر٣٣) يعنى أبا بكر، أو كان القرآن يحقر بالوصف الناقص، نحو قوله: ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (سورة الكوثر٣) والمراد: العاص بن وائل، وقوله: ﴿ ...إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ... ﴾ (سورة الحجرات٦) والمراد: الوليد بن عقبة .

وفى الآية التى معنا لم صرح القرآن باسم: آزر قيل: آزر اسم صنم، وفى الكلام حذف وتقديره: أى: دع عبادة آزر، وقيل بل هو اسم أبيه، والفائدة من ذكره أن الأب يطلق فى اللغة على الجد، فقال: آزر لرفع هذا الاحتمال . بدليل قوله تعالى: ﴿ ...آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ... ﴾ (سورة يوسف٣٨) .

وقد يسأل سائل . لم ذكر اسم (مريم) فى قوله تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ... ﴾ (سورة التحريم١٢)، وكذلك فى نحو ثلاثين موضعا من القرآن صرح باسمها . وهذا لحكمة عظيمة وهى أن النصارى لما قالت فى مريم وفى ابنها ما قالو صرح الله باسمها دفاعا عنها، وصونا لها عما قالوه، ولم يذكر كناية لها تأكيدا لأمر العبودية التى هى صفة لها، ولأن عيسى لا أب له، واعتقاد هذا واجب، فإذا تكرر ذكره منسوبا إلى الأم استشعرت القلوب هذا الاعتقاد الواجب من نفى الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة من قول اليهود ولذا قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ... ﴾ (سورة المؤمنون٥٠) .[1]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ... ﴾ (سورة الأنعام ٣٨) .

فى الآية نظرات:-

الأولى: لم قال: أمم أمثالكم بالجمع مع إفراد الدابة والطائر ؟

الثانية: لماذا لم يقل: وما من دابة ولا طائر ؟ وما معنى زيادة الوصف بقوله: فى الأرض، ويطير ؟

الثالثة: لماذا لم يقل: وما من دابة فى الأرض ولا طائر ؟

الجواب عن الأولى: أن كلمة دابة وكلمة طائر تدلان على معنى الاستغراق والعموم، فحمل قوله: إلا أمم على المعنى وهو الجمع .

(١) الكشاف ٢ / ٢٢٩، البرهان ١ / ١٦٠، ٢ / ٤٦٢، ١ / ١٦٣، ٢ / ٤١٥ .

والجواب عن الثانية: أنه يفيد زيادة التعميم والإحاطة كأنه قيل: وما من دابة فى جميع الأرضين السبع وما من طائر فى جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ويحتمل أن يقال إن الطيران لما كان يوصف به من يعقل كالجن والملائكة فلو لم يقل بجناحيه، لاحتمل أن يدخل فيه من يعقل فقيل بجناحيه ليفيد إرادة الطير غير العاقل بعينه .

الجواب عن الثالثة: أنه لو قال: (وما من دابة فى الأرض ولا طائر) لكان ظاهر العطف يوهم: ولا طائر فى الأرض أيضا فيوهم اختصاصه بطير الأرض فقط كالبط والدجاج فلما قال: يطير بجناحيه زال الوهم .[١]

والقرآن دائما إذا وجدوهما محتملاً فى آية ذكر وصفا يرفع هذا الاحتمال . وهذا تزيل رب العالمين كما فى قوله تعالى: ﴿ ...ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ... ﴾ (سورة التوبة ٣٠) فلم قال بأفواههم، والقول دائما بالفم . ولكن قيل بأفواههم للتنبيه على أنه قول لا دليل عليه، بل ليس فيه إلا مجرد اللسان، ولا يقويه حجة ولا برهان والقول الدال على معنى هو المؤثر فى القلب، أما القول الذى لا معنى له هو قول بالفم فقط، وقيل إن قوله بأفواههم رافع لتوهم إرادة حديث النفس[٢]، ﴿ ...وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ ... ﴾ (سورة المجادلة٨) .

---

(١) الكشاف ٢ / ٢١٧، البرهان ٢ / ٤٢٦ .

(٢) البرهان ٢ / ٤٢٧ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ ...كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ ... ﴾ (سورة الأنعام١٤١) مع أن المعلوم أن الثمر يؤكل إذا أثمر، ولكن فائدته أنه يبيح الأكل من أول إخراج الثمرة دون النضج الكامل .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ (سورة الفلق٥) فلماذا قال: (إذا حسد) بعد قوله: حاسد ؟

والجواب: أى إذا ظهر حسده وعمل بمقتضاه، لأنه إذا لم يظهر أثره فلا ضرر يعود منه على حسده بل هو الضار لنفسه ؛ لأنه اغتم عندما لم يجد أثرا لحسده على غيره . وعن عمر بن عبد العزيز قال: لم أر ظالما أشبه بالمظلوم من حاسد .

ولكن لماذا قال: (النفاثات فى العقد) بالتعريف ونكر قوله: غاسق، وحاسد ؟

الجواب: أنه عرّف النفاثات ؛ لأن كل نفاثة شريرة وهن الساحرات ونكر غاسق لأن كل غاسق لا يكون فيه شر وكذلك كل حاسد لا يضر وهناك حسد فى الخير[١] . والله أعلم .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ اللهُ لاَ تَتَّخِذُواْ إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ ... ﴾ (سورة النحل٥١) .

ما فائدة (اثنين) بعد (إلهين) وكلاهما مثنى ؟

---

(١) الكشاف ٤ / ٣٠١ .

والمعلوم فى الأعداد أن هناك ما يسمى بالعدد والمعدود والعرب جمعوا بين العدد والمعدود فيما زاد عن الواحد والإثنين فقالوا: رجال ثلاثة ونساء أربعة وأما رجل ورجلان فكل منهما عدد ومعدود فلا حاجة أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان، وهذا هو الذى جعلنا نسأل . لم قال فى الآية: إلهين اثنين وإله واحد ؟

والجواب: أنك لو قلت مثلا: لا تلبس ثوبين يحتمل النهى عنهما معا، ويحتمل النهى عن الاقتصار عليهما فإذا قلت: لا تلبس ثوبين اثنين علم المخاطب أنك نهيته عن التعدد دون الواحد، وأنك أردت منه الاقتصار على ثوب واحد ز فكأن الله يقول: لا تعددوا الآلهة إنما هو إله واحد .

وكذلك لو قلت (إنما الله إله) ولم تصفه بواحد لم يحسن ؛ لأنك تثبت الإلهية لا الوحدانية .(١)

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ ...فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ ... ﴾ (سورة النساء١٧٦) .

ولفظ كانتا للتثنية . فما فائدة اثنتين

والجواب: أنه أفاد العدد المحض مجردا عن الصفة أى قد يجوز أن يقال: فإن كانتا صغيرتين فلهما كذا، أو كبيرتين فلهما كذا، فلما قال: اثنتين أفاد أن فرض الثلثين للأختين تعلق بمجرد كونهما اثنتين فقط على أى صفة .



(١) الكشاف ٢ / ٤١٣، البرهان ٢ / ٤٣٥ .

قوله تعالى: ﴿ ...كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ ... ﴾ (سورة النساء١٣٥) .

﴿ ...كُونُواْ قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ... ﴾ (سورة المائدة٨) .

فى آية النساء قدم بالقسط على شهداء الله، وفى المائدة عكس ذلك، لأن الآية فى النساء تقدمها نشوز الرجال وإعراضهم عن النساء، وإصلاح حال الزوجين والإحسان إليهن، فناسب تقديم القسط وهو العدل أى كونوا قوامين بالعدل بين الأزواج وأشهدوا لله . وفى آية المائدة جاءت بعد أحكام تتعلق بالدّين والوفاء بالعهود والمواثيق لقوله فى أول السورة (أوفوا بالعقود). فناسب ذلك تقديم لله أى كونوا قوامين لله، وإذا شهدتم فاشهدوا بالعدل لا بالهوى .(١)

قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ (سورة طـه٤٩) .

خاطب فرعون موسى وهارون ولكن أفرد موسى فقال: يا موسى .

أى يا موسى وهارون . ولكن أفرد موسى بالنداء بمعنى التخصيص إذ هو صاحب الرسالة، ولما كان هارون أفصح من موسى لسانا كما ذكر القرآن لم يخاطبه فرعون تجنبا لفصاحته وحدة جوابه، وهذا خبث من فرعون .(٢)

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ ...فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴾ (سورة طـه١١٧) .

(١) كشف المعانى ١٤٢ .
(٢) الكشاف ٢ / ٥٣٩، البرهان ٣ / ١٢٦ .

فأسند إلى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما فى الخروج ؛ لأن آدم وحده هو المخاطب أولا وهو المقصود بالكلام ؛ ولأن الله جعل الشقاء فى الدنيا فى حيز الرجال، ويحتمل الإغضاء عن ذكر اسم المرأة، ويحتمل مراعاة الفاصلة فى سورة طه .(1)

والدليل على مراعاة الفواصل أنه قال: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۞ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ (سورة طـه ١١٨، ١١٩) .

وكان القياس أن يقترن الجوع بالظمأ فيقول: لا تجوع ولا تظمأ، ولكن ذكر (تعرى) لتناسب تضحى .

ومثل ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ... ﴾ (سورة طـه٦٧) .

فلو أخر فى نفسه عن موسى لفات تناسب الفواصل، لأن قبله: أنها تسعى، وبعده: إنك أنت الأعلى ومثله: ﴿ ...آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ (سورة طـه٧٠.) وموسى أحق بالتقديم ولكن أخره لمناسبة الفواصل .(2)

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ ...فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ... ﴾ (سورة النساء٣)

﴿ ...أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ... ﴾ (سورة فاطر١) .

(1) الكشاف ٢ / ٥٥٦ .
(2) البرهان ٣ / ٢٣٥، الكشاف ٢ / ٥٥٧ .

لم عبر بقوله مثنى بدلا من اثنين، وثلاث بدلا من ثلاثة، ورباع بدلا من أربعة ؛ لأن هذه الأعداد تسمى أعداداً معدولة، أى عدل عن أصلها إلى هذه الصيغ لتدل على الانفراد لا الاجتماع، أى من الملائكة جماعة ذوو جناحين، وجماعة ذوو ثلاثة، وجماعة ذوو أربعة . فكل جنس منفرد بعدد . كذلك الخطاب فى نكاح النساء للجميع، فوجب التكرير ليأخذ كل ناكح يريد الجمع ما أراده من العدد الذى أطلق له فبعضهم ينكح اثنين، وبعضهم يأخذ ثلاثة، وبعضهم يأخذ أربعة لا أنه يجمع بين الاثنين والثلاثة والأربعة .

ولو قال: مثنى أو ثلاث أو رباع بأو دون الواو لكان المعنى أنه لا يجوز لهم النكاح إلا على أحد هذه الأنواع، وليس لهم أن يجمعوا بينهما فالواو تدل على جواز الجمع بين أنواع القسمة ودلت على إطلاق أن يأخذ الناكحون من أرادوا نكاحها من النساء إن شاءوا مختلفين فى تلك الأعداد وإن شاؤوا متفقين فيها محظور عليهم ما وراء ذلك، ولم عبر بـ (ما) وهى لغير العاقل: ﴿ ...فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ... ﴾ (سورة النساء٣)(1) والجواب أن (ما) وقعت على أنواع من يعقل أى الأبكار إن شئتم والثيبات . وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ ... مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ... ﴾ (سورة ص٧٥) ولم يقل (لمن خلقت)، لأن ذلك ورد فى معرض التوبيخ على امتناعه من السجود، والمعصية والتكبر فكأنه يقول: لم عصيتنى وتكبرت على ما خلقته وشرفته ولو قال (لمن) لأوهم أنه وجب السجود له من حيث هو أو لعلة موجودة فيه أو لذاته، وليس كذلك . فالسجود حقيقة للنوع الذى خلقه الله .(2)

(1) المغنى ٦١٩ .
(2) البرهان ٤ / ٤٠٠، ٤ / ٣٩٩ .

قوله تعالى: ﴿ ... قَالُواْ سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ... ﴾ (سورة هود٦٩) لم نصب (سلاما) الأولى، ورفع الثانية ؛ وكل منهما بعد لفظ قال ؟

الجواب: إنه نصب الأول لأنه مصدر ساد مسد الفعل، والأصل: تسلم عليكم سلاما، وهى عبارة مؤذنه بحدوث التسليم عليهم، وأما سلام إبراهيم بالرفع أى عليكم سلام للدلالة على ثبات السلام بالجملة الاسمية كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به . والتعبير بالجملة الاسمية أثبت وأوكد من الفعلية، وأيضا جاء قول إبراهيم سلام بالرفع، والسلام من دين الإسلام، فحكى الله لنا قول إبراهيم لنقتدى به، وهذا أمر ثابت بخلاف نصب (سلاما) فى قول الملائكة المستلزم لتقدير الفعل على الحدوث والتجدد .[١]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ ... ﴾ (سورة مريم٣٣) .

إدخال الألف واللام على السلام يشعر بذكر الله تعالى لأن السلام من أسمائه، ويشعر بطلب السلامة منه لأنك متى ذكرت اسما من أسمائه فقد تعرضت بطلب المعنى المشتق منه ذلك الاسم . ويشعر أيضا بعموم التحية، فليس قوله: سلام عليك، أى سلام منى عليك بمنزلة قولك: السلام فى العموم .

ولذا جاءت كلمة (سلام) من غير الألف واللام فى الآيات ﴿ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾ (سورة الصافات١٠٩) ،

(١) الكشاف ١ / ٤٨، ٢ / ٢٨٠، البرهان ٤ / ٧١، نتائج الفكر ٤١٥ .

وقوله: ﴿ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ ... ﴾ (سورة الصافات٧٩)،

وقوله: ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ... ﴾ (سورة مريم١٥) ؛ لأن المتكلم فيها هو الله تعالى . وسلام منه سبحانه يكفى عن كل سلام ويغنى عن كل تحية وليس فيه تعرض لطلب . فلم يكن فائدة لذكر الألف واللام . أما قول المسيح: (والسلام على يوم ولدت) فهو من دعاء عيسى، ويرمز إلى ما اشتق منه اسم الله تعالى، والسلام من أسمائه، ويشعر ذلك بطلب السلام من الله تعالى .[١]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (سورة الأنبياء٩١) .

فقال آية، والحديث عن مريم وعيسى ؛ لأن عيسى وأمه مجموعهما آية واحدة، وهى ولادتها إياه من غير زوج فالآية من مجموعهما معا . وقدم مريم على الابن للسياق فى قوله: والتى أحصنت فرجها . ولذلك فى آية أخرى ليس فيها هذا السياق قدم الابن فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً ... ﴾ (سورة المؤمنون٥٠) .[٢]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي ... ﴾ (سورة هود٤٥)

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ ... ﴾ (سورة آل عمران٣٨) .

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ۝ قَالَ ... ﴾ (سورة مريم٣،٤) .

(١) البرهان ٤ / ٩٢

(٢) الكشاف ٢ / ٥٨٢، البرهان ٣ / ٢٦٢ .

جاءت آية هود بقوله: فقال بالفاء بعد (نادى) وفى آيتى آل عمران ومريم (قال) بعد دعا ونادى لأن المراد فى آية هود أنه قارب النداء، أو أراد النداء، لا أنه أوقع النداء نفسه، ولو وقع النداء حقيقة لسقطت الفاء، وكان ما ذكره تفسيرا للنداء كما فى الآيتين، لأن الدعاء والنداء فيهما وقع فى الحقيقة ثم فسره بقوله: قال فلم يذكر الفاء .[١]

وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ ... ﴾ (سورة الطلاق٢) أى قاربن بلوغ الأجل وهو انقضاء العدة، لأن الإمساك لا يكون بعد انقضاء العدة .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ... ﴾ (سورة النحل٨)

لماذا عطف (زينة) على (لتركبوها) وليسا من باب واحد . وزينة: نصبت على أنها مفعول لأجله ؛ لأن الركوب فعل المخاطبين، أى هم الذين يركبون، أما الزينة ففعل الخالق والمقصود الأصلى فى هذه الأصناف هو الركوب .

وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود، فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل تنبيها على أنه أهم الغرضين وأقوى السببين، وتجرد التزين من اللام ؛ لأنه تبع للركوب وقرئ: لتركبوها زينة بغير واو . أى هى زينة فى حال ركوبها .[٢]

(١) الكشاف ٢ / ٢٧٢، البرهان ٢ / ٢٩٤ .
(٢) الكشاف ٢ / ٤٠٢ .

قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴾ (سورة النحل٦٦) .

تأتى الأنعام فى اللغة مفردا وجمعا . مفردة على وزن أفعال مثل ثوب أخلاق، وتأتى جمعا مفرده نعم مثل جبل وأجبال . فإذا ذكر لفظ الأنعام مفردا عاد الضمير إليه مفردا مذكرا مثل هذه الآية: ﴿ ...نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ... ﴾ (سورة النحل٦٦)، وفى سورة الأنعام جاءت جمعا فى قوله تعالى: ﴿ ...وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا ... ﴾ (سورة الأنعام١٣٨)، وفى قوله: وقالوا ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا) فعاد الضمير إليها مؤنثا على أنها جمع لا مفرد .[١]

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ ...وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ... ﴾ (سورة النحل٨١)

لم يذكر البرد ؛ لأن الوقاية من الحر عندهم أهم، والبرد عندهم يسير محتمل، وقيل: ما يقى من الحر يقى من البرد وقيل لم يذكر البرد هنا لأنه فى أول السورة قال: (لكم فيها دفء ومنافع) وقوله: ﴿ ...وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا ... ﴾ (سورة النحل٨٠)، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ... ﴾ (سورة الأنعام١٣) أى وما تحرك . وإنما آثر ذكر السكون لأنه أغلب الحالين على المخلوق، والساكن أكثر

(١) الكشاف ٢ / ٤١٦، البرهان ٣ / ٣٦٠ .

عددا من المتحرك، وكل متحرك يصير إلى سكون . ولأن السكون هو الأصل، والحركة طارئة عليه . ومثل قوله: (بيدك الخير) أى والشر، ولم يذكر الشر من باب الأدب لئلا يضاف لله تعالى . ولأن الخير هو مطلوب العباد، ولأن الخير أكثر وجودا من الشر .[1]

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ ...مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ... ﴾ (سورة النساء11).

لماذا قدم الوصية على الدين، ومعلوم أن وفاء الدين من تركة الميت سابق ومقدم على الوصية، لكنه قدم الوصية ؛ لأنهم كانوا يتساهلون فى تأخيرها وأدائها فاهتم بها ؛ ولأن الوصية قربة إلى الله بخلاف الدَّين فبدئ بالوصية للفضل ؛ لأنها للميت والدَّين لغيره .

ولما كان صاحب الدَّين له قوة فى طلب حقه أخر عن الوصية لأن الموصى له قد يكون ضعيفا لا يستطيع المطالبة بوصيته فقدم الوصية عونا للموصى له على أخذ وصيته، وحث للورثة على تنفيذ الوصية والاهتمام بها .[2]

۞۞۞

(1) الكشاف 2 / 423، البرهان 3 / 119 .
(2) الكشاف 1 / 508، البرهان 3 / 265 .

قوله تعالى: ﴿ يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ... ﴾ (سورة النساء11) .

هلا قيل: للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر . والجواب أنه بدأ ببيان حظ الذكر لفضله وقد ضوعف حظه لذلك، ولو قيل: للأنثيين مثل حظ الذكر كان يقصد إلى بيان نقص الأنثى وما كان يقصد بيان فضله أولى من القصد إلى بيان نقص غيره عنه، ولأنهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث وهو سبب نزول الآية. فقيل كفى الذكور أن ضوعف لهم نصيب الإناث فلا يحرمن من النصيب .[1]

۞۞۞

قوله تعالى ﴿ .. وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ فاطر (27) .

غرابيب جمع غربيب والغربيب بكسر الغين وسكون الراء من أجود أنواع العنب، ويقال: أسود غربيب أى حالك السواد، كما يقال: أبيض ناصع، وأصفر فاقع ومنه " صفراء فاقع لونها " .

وقوله تعالى فى الآية: وغرابيب سود بتقديم النعت على المنعوت، وهنا يعرب المنعوت بدلا، وهو: سود ؛ لأن نعت الألوان لا تتقدم عليها . والأصل: سود غرابيب وذلك مثل قوله تعالى فى أول سورة إبراهيم " صراط العزيز الحميد الله " والأصل: صراط الله العزيز الحميد، والعزيز الحميد صفة له فلما تقدمت الصفة على الموصوف، أعربت الصفة حسب موقعها وهى

(1) الكشاف 1 / 505 .

مضاف إليه وأعرب الموصوف بدلا، فهل هنا وجه سوغ تقديمه . الجواب أنه لما تأخر البيض والحمر فى قوله تعالى: ﴿.. جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا ..﴾ كان الأليق بحسن النسق والنظم أن يكون السود كذلك فأخرها وقدم الغرابيب وهى الجبال الطوال السود، ومنه: الغراب، ولما كان فى السود زيادة الوصف جاء بعد الغرابيب [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ..﴾ البقرة (٢٨٢) .

ما فائدة قوله: (بدين) بعد قوله: تداينتم، والجواب أنه ذكر (بدين) ليرجع الضمير إليه فى قوله: فاكتبوه، إذ لو لم يذكر لوجب أن يقال فاكتبوا الدين، فلم يكن النظم بذلك الحسن .

وتداينتم مفاعله من الدَّين أو من الدِّين بكسر الدال، فاحتيج إلى قوله: بدين ليتعين ذلك، وتداينتم مشترك بين الاقتراض والمبايعة وذكر الدَّين يميز المراد بذلك [2] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿.. وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الحج (٢٥) .

(١) الكشاف ٣ / ٣٠٧، البرهان ٢ / ٤٤٤، القاموس المحيط (غرب)
(٢) الكشاف ١ / ٤٠٢، البرهان ٢ / ٣٩٨ .

تأمل كيف عدى فعل الإرادة هنا بالباء، وهو فى الأصل لا يتعدى بالباء، فلا يقال: أردت بكذا ولكنه ضمن (يرد) معنى فعل (هم) فإنه يقال: هممت بكذا وهو أبلغ من الإرادة، فتوعد الله من هم بالظلم فيه بأن يذيقه العذاب الأليم . فكان فى ذكر الباء إشارة إلى استحقاق العذاب عند الإرادة، وإن لم تكن جازمة والإرادة أقل من الهم فما بالك بالهم [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿.. لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ..﴾ العادة عند البشر أن تأخذ الإنسان السنَه قبل النوم فجاءت الآية على حسب العادة، وأيضاً وردت الآية فى معرض المدح والثناء ؛ لأن انتفاء السنة أبلغ فى التنزيه ؛ لأنه إذا استحالت السنة عليه فأولى أن يستحيل عليه النوم، وأيضا قال: (ولا نوم) لئلا يتوهم أن السنة ضعيفة ولكن النوم يأخذه لقوته فجمع بينهما لنفى الاثنين، ولذا عبر بـ (لا تأخذه) يعنى لا يغلبه القليل ولا الكثير من النوم، وزيدت (لا) فى قوله (ولا نوم) لاحتمال أن يقال: لا تأخذه سنة ولا نوم فى حال واحدة، وإنما تأخذه السنة وحدها أو النوم وحده فنفى عن نفسه السنة والنوم بكل حال [2] .

❁❁❁

(١) زاد المعاد ١ / ٥١ .
(٢) البرهان ٣ / ٢٤٠، ٤٠٤، الكشاف ١ / ٤١٦ .

قوله تعالى ﴿ .. يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ الشورى (٤٩) .

قدم الإناث لجبرهن إذ هن فى موضع الانكسار، ولذا جبر الذكور بالتعريف، فنكر إناثا وقدمهن وعرف الذكور وأخرهم للإشارة إلى ما فاتهم من فضيلة التقديم . فخص كل نوع بفضيلة . الإناث بالتقديم والتنكير، والذكور بالتعريف والتأخير وقدم الإناث أيضاً لبيان أن الخلق كله بمشيئة الله لا على وفق غرض العباد، فإن الأبوين غالبا يريدان الذكور فبدأ الله بذكر الصنف الذى يشاؤه ولا يريده الأبوان، ولكن لما ذكر الصنفين معاً قدم الذكور فقال: أو يزوجهم ذكرانا وإناثا فأعطى كل جنس حقه من التقديم (١) .

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿ .. قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .. ﴾ الشورى (٢٣) .

لم قال: المودة فى القربى، ولم يقل: مودة القربى أو المودة للقربى .

الجواب أنه جعل القربى مكانا للمودة ومقرا لها فجاء بـ (فى) الدالة على الظرفية والتمكن والاستقرار . كما تقول: لى فى آل فلان مودة، تريد أحبهم وهم مكان حبى . فالمعنى إلا المودة ثابتة فى القربى ومتمكنة فيها (٢) .

❀❀❀

(١) البرهان ٣ / ٢٥٢ .
(٢) الكشاف ٣ / ٤١٦ .

قوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ .. ﴾ .

الآية نفت الإحاطة ولم تنف الرؤية فلم يقل: لا تراه الأبصار، فمن ذهب إلى عدم رؤية الله فى الآخرة كالمعتز له فقد جانب الصواب .

فقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ ولذا حسن قول الرسول: " إنكم ترون ربكم يوم القيامة " .

ولم يقل: إنكم تدركون ربكم " ولما قدم نفى إدراك الأبصار له قال: وهو اللطيف الخبير، لأن العادة أن كل لطيف لا تدركه الأبصار .

ثم قال: الخبير، لأنه ليس كل من أدرك شيئا كان خبيرا به، فأخبر تعالى أن يدرك كل شئ مع الخبرة به (١) وهناك فائدة أخرى وهى أنه قال: (لا تدركه الأبصار) فعبر بـ (لا) دون (لن) لأن (لا) يمتد معنى النفى فيها . أما (لن) فإنها تنفى ما قرب، والنفى فيها قاصر، ولذلك قال تعالى لموسى (لن ترانى) ولم يقل (لا ترانى) والعرب تنفى بـ (لن) ما كان ممكنا عند المخاطب كائنا فى الظن . فتقول: لن يكون لما يمكن أن يكون (٢) .

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿ .. وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴾ النمل (٨٠) .

قوله تعالى: ﴿ .. وَلَّىٰ مُدْبِرًا .. ﴾ النمل (١٠) .

قوله تعالى: ﴿ .. ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ التوبة (٢٥) .

(١) نتائج الفكر ١٣٢، البرهان ١ / ٨٠ .
(٢) النتائج ١٣٣ .

ما معنى (مدبرين) بعد قوله (ولوا) والظاهر أنهما بمعنى واحد . الحقيقة أن مدبرين لا يغنى عنها (ولوا) فإن التولى قد يكون بجانب دون جانب بدليل قوله: أعرض ونأى بجانبه . مع لحاظه بالجانب الآخر فيحصل له إدراك بعض الإشارة بهذا الجانب فجعل الفاصلة (مدبرين) ليعلم أن الذى تولى كان بجميع الجوانب، فاحتجب عن المتكلم وصار بعيدا لا يسمع ولا يرى، فحصلت المبالغة، من عدم الإسماع بالكلية .

فالتوليه أن يولى الشئ ظهره، والإدبار أن يهرب منه والآية تعنى المعنيين معاً [1] .

✡✡✡

قوله تعالى: ﴿ .. حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴾ .

وبعده: ﴿ .. لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ﴾ حين قتل الغلام .

فى الأولى (إمرا) وفى الثانية (نكرا) لماذا ؟

الإِمْر بكسر الهمزة شئ يخشى منه والنكر: ما تنكره العقول والشرائع والسفينة لم تغرق وإنما عابها ويخشى عليها من الغرق فقال فيها: لقد جئت شيئا إمرا، أما قتل الغلام فهو إعدام له، وهذا تنكره العقول فناسب كل لفظ مكانه، وقيل إن إمرا أى عجبا والنكر أعظم من العجب [2] .

---

(١) البرهان ٢ / ٤٠٣ .

(٢) الفخر الرازى ٢١ / ١٥٥، كشف المعانى ٢٤٢ الكشاف ٣ / ٤٩٣ .

وقيل إن النكر وهو قتل الغلام أقل من الإمر وهو غرق السفينة لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة .

ولم قيل ﴿ .. حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا .. ﴾ بغير فاء .

وقال: ﴿ .. حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ .. ﴾ بالفاء ؟

الجواب: أنه جعل خرق السفينة جواب الشرط وجعل قتل الغلام من جملة الشرط معطوفا عليه وجعل الجواب قوله: ﴿ .. أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً .. ﴾ وذلك لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب فلم يأت بالفاء، ولأنه قد تعقب القتل لقاء الغلام فجاء بالفاء التى تفيد التعقيب [1] . والله أعلم .

✡✡✡

قوله تعالى: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا .. ﴾

قال: ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ .. ﴾ ولم يقل وألق عصاك (طه) ومعلوم أن الذى فى يمينه هى العصا، وهذا من باب تحقير أمر العصا بعدم ذكرها ليلزم منه تصغير كيد السحرة وقد يكون من باب تعظيم العصا ؛ لأن فيه تثبيتا لقلب موسى على النصر، أى لا تحفل بهذه الأشياء الكبيرة فإن الذى فى يمينك أعظم منها كلها بقدرة الله وأقوى .

وأيضاً لأن موسى علم أن العصا آية من آيات الله عندما سأله عنها بقوله: وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى . فلما جاء وقت الحاجة إليها وإظهار المعجزة منها قال المولى له: وألق ما فى يمينك فيكون ذلك تأنيسا له حيث خوطب بما عهد أن يخاطب به، ويذكر موسى الوقت الذى قيل له فيه: وما تلك بيمينك يا موسى ويتذكره بهذه الصيغة .

---

(١) الكشاف ٣ / ٤٩٣ .

وهناك سر لطيف آخر فى إجابة موسى عن سؤال ربه فأجاب عن العصا بما هو أكثر من السؤال وكان يكفيه أن يقول هى عصا . ولكن موسى علم أن السؤال يعقبه أمر عظيم يحدثه الله فى العصا مستقبلا فقال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى . ولكن لفرط حبه فى الحديث مع ربه زاد أمورا من عنده، ولذا طمع فى زيادة الحديث بقوله: ولى فيها مآرب أخرى ظنا منه أن الله سيسأله ما هى المآرب الأخرى يا موسى فيطول الحديث مع ربه [1] .

وهناك سر لطيف آخر فى قوله: ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا .. ﴾، ولم يقل: فسجد السحرة، وذلك لكى يكرر لفظ الإلقاء فكما ألقى موسى عصاه فكذلك ألقى السحرة سجدا . ولكن هناك فرق بين إلقائه العصا وإلقائهم حبالهم وكأنما ألقاهم غيرهم لشدة غرورهم، وتكرار اللفظ على معنيين متضادين يوقظ السمع ويحقق لطف الله فى نقلهم من غاية الكفر إلى نهاية الإيمان [2] .

۞۞۞

(١) الكشاف ٢ / ٥٤٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٥٤٥، ٢ / ١٠٣ .

فى وعلى

قوله تعالى تعالى: ﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا .. ﴾ الفرقان (٦٣) .

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا .. ﴾ الإسراء (٣٧) .

قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ لقمان (١٨) .

فى الآية الأولى: يمشون على الأرض وفى الثانية تمشى فى الأرض . فلماذا ؟ لأنه فى الأولى وصف العباد، وبيّن أنهم لم يوطنوا أنفسهم فى الدنيا واستعلوا عليها، ووقروا أنفسهم فعبر بـ (على) الدالة على العلو. وفى الثانية عندما نهاه عن فعل التبختر، والغرور قال لا تمش فى الأرض [1] .

وكذلك قوله تعالى: ﴿ .. وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ سبأ (٢٤)

استعمل (على) فى جانب الحق مع الهدى، واستعمل (فى) فى جانب الباطل مع الضلال ؛ لأن صاحب الحق عال وبه علو حيث وجد، وصاحب الباطل منغمس فى ظلام لا يدرى أين يتجه [2] .

۞۞۞

(١) البرهان ٤ / ١٧٦ .

(٢) البرهان ٢ / ٣١٣، ٤ / ١٧٥ .

قوله تعالى: ﴿ .. رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا .. ﴾ النساء (٧٥) .

لم قال (الظالم) والموصوف مؤنث وهو القرية، ولم يقل: القرية الظالمة أهلها ؟ وذلك لأن كل قرية ذكرت فى القرآن فالظلم ينسب إليها على طريق المجاز كقوله: وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة ... فكفرت بأنعم الله، وقوله: وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها، أما هذه القرية فى سورة النساء فهى مكة فينسب الظلم إلى أهلها تشريفا لها فلم ينسب الظلم إلى القرية نفسها وإنما إلى أهلها . فذكرّ الظالم نظرا لأهلها، ولم يؤنثه تبعا للقرية . وهذا يسمى فى علم النحو بالنعت السببى مثل أن تقول: هذا رجل عالم أخوه، وهذه امرأة عالم أخوها .

فلم تؤنث لفظ (عالم) وهو وصف امرأة، وإنما ذكر تبعا لـ (أخوها) فالعالم هو أخو المرأة، وليس المرأة نفسها [١] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ .. ﴾ المائدة (٤٤) .

ما فائدة وصف الأنبياء بقوله: الذين أسلموا ؟ وهم ليسوا إلا مسلمين، الجواب: كما يراد تعظيم الموصوف بالصفة قد يراد تعظيم الصفة لعظم موصوفها فإذا كان الموصوف عظيما فإن صفته أيضاً تكون عظيمه تبعا

(١) الكشاف ق ١ / ٥٤٢ .

لعظم موصوفها . وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء بالصلاح فى قوله: وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين، تنويها بمقدار الصلاح وفضله إذ جعل صفة للأنبياء، فهنا يراد تعظيم الصلاح نفسه لكونه وصفا للأنبياء، وهذا حث للناس على تحصيل هذه الصفة وكذا فى قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ .. ﴾ فأخبر عن الملائكة المقربين بالإيمان تعظيما لقدر الإيمان نفسه لكونه وصفا للملائكة ولقد أحسن القائل حين مدح محمدا فقال، فلئن مدحت محمدا بقصيدتى فلقد مدحت قصيدتى بمحمد .

وهناك جواب آخر، وهو أنه رد على من قالوا: إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى فكذبهم ربهم بقوله: الذين أسلموا [١] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ قَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ۞ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلاَلَةٌ .. ﴾ .

لم قال ضلالة، ولم يقل ضلال كما قالوا ؛ لأن الضلالة واحدة وهى أدنى من الضلال، فكان نفى الضلالة أبلغ من نفى الضلال، والضلالة تطلق على الفعلة الواحدة، وأما الضلال فهو على الكثير والقليل، ونفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى، كأنه قال: ليس بى شئ من الضلال [٢] .

(١) كشف المعانى ١٥١، الكشاف ١ / ٦١٥ .
(٢) الكشاف ٢ / ٨٥ .

وقوله تعالى: ﴿ .. وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ .. ﴾ هود (١٢) .

لم قال: ضائق اسم فاعل من ضاق بدلا من ضيق، وضيِّق صفة مشبهه، وما الأنسب في اللفظين للآية .

لما كان الضيق عارضا في صدره غير ثابت عبر باسم الفاعل الذى يدل على الحدوث، ولو قال: ضيق وهى صفة مشبهه تدل على الثبوت مثل سيِّد تريد بها السيادة الثابتة المستقرة وإن أردت حدوث السيادة قلت سائد مثل ضائق لصار الضيق لازما له، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْماً عَمِينَ ﴾ وعمين جمع عَمى بوزن فَعِل مثل حَذِر وفَطِن صفة مشبهة والعمى يدل على عمى ثابت، أما العامى اسم فاعل فهو حادث، ولذا عبر القرآن بالوصف الثابت [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ .. وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ الأعراف (٦٢) .

لم قال " وأنصح لكم " ؟ لأنه يقال: نصحته ونصحت له، وشكرته وشكرت له، والتعبير بزيادة اللام مبالغة ودلالة على إخلاص النصح وأنه وقع خالصا للمنصوح له مقصوداً به جانبه لا غير، ولذا قال لهم هود: ﴿ .. وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ باللام أيضا .

---

(١) الكشاف ٢ / ٢٦١، ٢ / ٨٦ .

وقول صالح لقومه: ﴿ .. وَنَصَحْتُ لَكُمْ .. ﴾ وكذلك شكرت له أبلغ من شكرته ؛ قال تعالى: ﴿ .. أَنِ اشْكُرْ للهِ .. ﴾ لقمان (١٢) .

وقال: ﴿ .. أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ لقمان (١٤) .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ .. وَاخْشَوْا يَوْمًا لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. ﴾ لقمان (٣٣) .

لم أكد الجملة الثانية وهى قوله: ﴿ .. وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ .. ﴾ دون الأولى وهى: لا يجزى والد عن ولده ؟

الجواب: قطع الله تعالى وهم الوالد فى أن يكون الولد فى يوم القيامة يجزيه بحقه عليه كما أوجب الله عليه فى الدنيا حقا للوالد، فلما كان إجزاء الولد عن الوالد فيه مظنة الوقوع لأن الله حضّه عليه فى الدنيا كان جديرا بتأكيد النفى لإزالة هذا الوهم فقال: ﴿ .. وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا .. ﴾ بتأكيد النفى بقوله (هو) والعكس لا يحتاج إلى تأكيد . والله أعلم [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ .. وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُواْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴾ التوبة (٤٦) .

لم قال (مع القاعدين) وهو مفهوم من قوله: اقعدوا ؟

لو قال (اقعدوا) فقط لم يفد سوى أمرهم بالقعود، وإنما المقصود وصفهم بالتخاذل والتقاعد وهذا ذم لهم وتعجيز وإلحاقهم بالنساء والصبيان الذين شأنهم القعود فى البيوت .

---

(١) الكشاف ٣ / ٢٣٨ .

ولذا وصفهم الله بقوله: ﴿ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ الْخَوَالِفِ .. ﴾
ولا يحصل هذا المعنى الدقيق إلا بقوله: مع القاعدين . وهذا مثل مبالغة فرعون حين توعد موسى ﷺ بقوله: ﴿ .. لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ ولم يقل: لأجعلنك مسجونا أى لأجعلنك محبوسا مع المجرمين الآخرين (١) .

✿✿✿

قوله تعالى: ﴿ .. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴾ الشورى (١١) .

الكاف فى (كمثله) زائدة لتوكيد نفى المثل، والمعنى: ليس شئ مثله، ولو لم تقدر زائدة لصار المعنى: ليس شئ مثل مثله، ونفى مثل المثل يلزم إثبات المثل وهو محال، ولأنهم إذا بالغوا فى نفى الفعل عن أحد قالوا: مثلك لا يفعل كذا، والمراد إنما هو النفى عن ذاته .

وقيل إن مثل بمعنى الذات، أى ليس كذاته شئ، وقيل بمعنى الصفة، أى: ليس كصفته شئ (٢) .

✿✿✿

قوله تعالى: ﴿ .. إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ الإنسان (٣) .

ولم يقل شكورا لمطابقة كفورا، قصد المبالغة فى جانب الكفر ذما له، وفى الشكر جاء باللفظ الأعم، لأن كل كافر كفور بالنسبة إلى نعم الله عليه والإنسان مهما شكر الله فلن يكون شكوراً بصيغة المبالغة، وإنما شاكر فقط(٣) .

---

(١) الكشاف ٢ / ١٩٣ .

(٢) المغنى ٨٥ / ٢ البرهان ٢ / ٢٧٥، المفردات ٤٦٢ .

(٣) كشف المعانى ٣٦٩ .

قوله تعالى: ﴿ .. تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ .. ﴾ المائدة (٨٣) .

هذه العبارة لها ثلاث مراتب:

الأولى: - فاض دمع عينه وهذا هو الأصل .

الثانية: - محوله عنها وهى: فاضت عينه دمعا .

حول الفعل الماضى إلى العين مجازا ومبالغة ونصب ما كان فاعلا على التمييز، وهو (دمع) مثل: واشتعل الرأس شيباً وأصله: واشتعل شيب الرأس، ومثل: وفجرنا الأرض عيونا وأصله: وفجرنا عيون الأرض .

الثالثة: - وهى أعلى المراتب بلاغة وأسلوبا فجاء بصيغة التعليل، وهى محولة عنها أيضاً فقال ﴿ .. تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ .. ﴾ وهى أبلغ من الثانية ؛ لأنه ترك نصب التمييز، وأبرز الكلام فى صورة التعليل، ومعناه: تمتلئ العين من الدمع حتى تفيض، فوضع الفيض الذى هو من الامتلاء موضع الامتلاء ؛ وهو من إقامة السبب مقام المسبب، أو قصد المبالغة فى وصفهم بالبكاء فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها أى تسيل من الدمع من أجل البكاء . والكلام مع التعليل أفضل من التمييز كما تقول: فاضت عينه من ذكر الله (١) .

✿✿✿

---

(١) الكشاف ١ / ٦٣٨ .

مسائل فى عود الضمير

قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ .. ﴾ البقرة (٣١) .

قال: عرضهم بالتذكير، والأسماء مؤنثة، والجواب أنه عرض المسميات لا الأسماء، وقال للملائكة أنبئونى بأسماء هؤلاء، أى هذه المسميات التى علم آدم أسماءها . وذكر ؛ لأن فى المسميات عقلاء فغلبهم على غيرهم [١] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ .. وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي .. ﴾ المائدة (١١٠) .

أى تخلق مثل هيئة الطير، والضمير فى (فتنفخ فيها) عائد على الكاف التى بمعنى مثل، وليس عائدا على (هيئة الطير) مع أنه السابق إلى الذهن وعادا الضمير إلى الكاف لأنها صفة الهيئة التى كان يخلقها عيسى وينفخ فيها، ولا يرجع إلى الهيئة نفسها لأنها ليست من خلقه ولا من نفخه فيعود الضمير فى (فيها) على المثلية نفسها لا الهيئة [٢] .

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .. ﴾ البقرة (١٨٥) .

---

(١) الكشاف ١ / ٢٧٢ .

(٢) الكشاف ١ / ٦٥٣ .

هل ذكر رمضان مجردا من كلمة شهر مثل رمضان مقرونة بلفظ شهر. لأنه ﷺ يقول: " من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له .. " فهل إذا قيل: من صام شهر رمضان إيمانا واحتسابا يكون المعنى نفسه ؟

الجواب أن هناك حكمة اقتضت الفرق بين الموضعين فإذا قلت صمت رمضان بغير كلمة شهر فقد وقع الفعل ويتناول جميع الشهر، وإذا قلت: صمت شهر رمضان بذكر كلمة شهر قبل رمضان وهى الظرف الحقيقى فإن الصيام لا يتناول جميع الشهر إلا بدليل .. ولذا قال تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ .. ﴾، فإنزال القرآن جاء فى ليلة من الشهر، وليس الشهر كله، ولو قال: رمضان الذى أنزل فيه القرآن لاقتضى اللفظ نزول القرآن فى جميع الشهر، وهذا سر قول الرسول ﷺ: " من صام رمضان إيمانا واحتسابا أى صام الشهر كله، ولو قال من صام شهر رمضان لصار ظرفا مقدرا بـ (فى) ولم يتناول الصيام جميع الشهر " [١] .

فإذا قلت: سرت يوم السبت فالسير واقع فى اليوم ولا يتناول جميع اليوم ؛ لأنك ذكرت كلمة يوم قبل السبت فاليوم ظرف للسير، وإذا قلت سرت السبت دون ذكر يوم فالسبت مفعول لا ظرف، والسير واقع فى السبت كله وهذا مثل: رمضان وشهر رمضان .

۞۞۞

---

(١) نتائج الفكر للسهيلى ٣٨٣ .

قوله تعالى: ﴿ .. لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَّعْدُودَةً .. ﴾ البقرة (٨٠) .

وفى آل عمران (٢٤) ﴿ .. أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ .. ﴾ .

ومعدودة: جمع كثرة، ومعدودات جمع قلة فما الفرق ؟ .

الجواب أن قائلى ذلك من اليهود فرقتان .

إحداهما: قالت إنما تعذب بالنار سبعة أيام .

والأخرى قالت: إنما تعذب بالنار أربعين يوما وهى أيام عبادتهم العجل فجاءت آية البقرة (معدودة) جمع كثرة مع قصد الفرقة الثانية وآية عمران (معدودات) جمع قلة مع قصد الفرقة الأولى [(١)] .

وأيضاً الأصل فى الجمع إذا كان واحده مذكرا أن يقتصر فى وصفه بالمفرد المؤنث مثل: سرر مرفوعة وأكواب موضوعه ونمارق مصفوفة، فجاء فى البقرة على الأصل، وفى آل عمران على الفرع .

أما فى قصة يوسف فجاء قوله تعالى ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ .. ﴾ فقال: معدودة أى قليلة تعد عدا ولا توزن، لأنهم كانوا لا يزنون من الدراهم إلا ما بلغ الأوقية وهى الأربعون ويعدون ما دونها، وقيل للقليلة معدودة لأن الكثيرة يمتنع عدها لكثرتها [(٢)] .

ومن التعبير عن القلة بالعدد الدعوة المأثورة على الكفره " اللهم أحصهم عددا ولا تبق منهم أحدا " أى اجعلهم يا رب عددا قليلا لا يعد ولا يحصى فدعا عليهم بالقلة وعبر عنها بلازمها وهو الإحصاء .

(١) كشف المعانى ١٠٣، الكشاف ١ / ٣٣٥ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٠٩ .

قوله تعالى: ﴿ .. مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاء أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴾ (٧١) القصص.

﴿ .. مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾ (٧٢) القصص.

مع الضياء قال: أفلا تسمعون، ومع الليل قال: أفلا تبصرون .

قدم الضياء لأن عموم منافع النهار أعظم من منافع الليل فقدم هذه النعمة، ولأن عموم المسموعات فى النهار لكثرة الحركة والكلام والمخاطبات والمعاش أكثر من الليل فناسب ذكر السمع، فجاء الضياء مناسبا للسمع . ولأن ظلام الليل يغشى الأبصار كلها ناسب ذلك ختمه بذكر البصر [(١)] .

✿✿✿

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ آمِنُواْ بِاللهِ وَرَسُولِهِ .. ﴾ النساء (١٣٦) .

لم قال آمنوا، والخطاب للذين آمنوا ؟

الخطاب للمسلمين، ومعنى آمنوا: أى اثبتوا على الإيمان ودوموا عليه وازدادوا فيه .

وقيل الخطاب لأهل الكتاب لأنهم آمنوا ببعض الكتب والرسل وكفروا ببعض (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) .

وقيل هو للمنافقين، كأنه قيل: " يا من آمنتم نفاقا آمنوا إخلاصا " [(٢)] .

✿✿✿

(١) كشف المعانى ٢٨٧ .

(٢) الكشاف ١ / ٥٧١، البرهان ٢ / ٢٩٦ .

قوله تعالى: ﴿ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ .. ﴾ نوح (٤)، الأحقاف (٣١)

﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ .. ﴾ الصف (١٢) .

﴿ .. وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ .. ﴾ البقرة (٢٧١) .

فى الأولى والثالثة جاءت: من ذنوبكم ومن سيئاتكم .

والثانية بغير من لماذا ؟ .

بغير (من) إخبار عن المؤمنين الذين سبق لهم النجاة من ذنوب الكفر بإيمانهم، ووعدوا بغفران ما اكتسبوا فى الإسلام من الذنوب، وهى غير محيطة بهم كإحاطة الكفر بالكافرين .

أما بزيادة (من) قبل ذنوبكم فهى خطاب للمشركين وهى إشارة بأنهم واقعون فى مهلكه قد أحاطت بهم وقد غفر لهم بعض الذنوب دون الإنقاذ الكامل الذى وعد به المؤمنون [1] .

وقيل أراد الله أن يغفر لهم ما بينهم وبين الله بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم فلذلك قال: من ذنوبكم .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ .. مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ مريم (٢٨) .

وقال: ﴿ .. وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ مريم (٢٠) .

(١) نتائج الفكر ٣٣٣، بدائع الفوائد لابن القيم ٢ / ٢٣٢ البرهان ٣ / ٢٢٠، الكشاف ٢ / ٣٦٩

فى الآية الأولى نفوا عن أم مريم البغى بالحرف (ما) ﴿ .. وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ ومريم نفت عن نفسها البغى بـ (لم) فما الفرق ؟

الجواب أن الفرق بين النفى بـ (لم) والنفى بـ (ما) أن النفى بـ (ما) هو الإخبار هذا الوقت أن هذا لم يحدث، أى ينفى نفيا كليا . أما النفى بـ (لم) فهو نفى لكل زمان من أزمنة الماضى بأن ذلك لم يحدث . كأنه يقول لك أنا أخبرك فى كل زمان من تلك الأزمنة أن ذلك لم يحدث فقول مريم ﴿ .. وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ كأنها قالت: ينتفى البغى عنى فى أزمنة وجودها كلها وهى أمام عينى . فهذا أبلغ فى التنزيه، وهى تنفى ذلك فى جميع الأزمنة الماضية . أما قولهم ﴿ .. وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ فهو نفى عام كلى وقد حكموا عليها حكما عاما واحدا وهم لا يمكنهم تصور كل زمان مضى على أمها كما تصورته مريم عن نفسها. ولم يقل (بغية) بالتأنيث ؛ لأنها على وزن (فعول) (بغوى) مثل صبور يستوى فيها المذكر والمؤنث [1] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ الأعلى (١) .

وقال: ﴿ .. سَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ الواقعة (٧٤) .

ما فائدة دخول الباء فى الثانية دون الأولى ؟

الحكمة فى هذا أن التسبيح نوعان: أحدهما ما يراد به التنزيه والذكر دون معنى آخر، والثانى يراد به الصلاة وهى ذكر مع عمل، وهو المقصود فى

(١) البرهان ٢ / ٣٣، ٢ / ٣٨٠ .

قوله: ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴾ فإذا أردت التسبيح المجرد فلا معنىً للباء، لا تقول سبحت بالله، وإذا أردت التسبيح المتضمن للصلاة دخلت الباء، فتقول: سبح باسم ربك كما تقول: صل باسم ربك، أى مفتتحا باسمه والصلاة لابد فيها من التكبير بلفظ (الله) ولذا لم يقل: سبح بربك [1] .

وقد ذكر لفظ اسم قبل لفظ (رب) لأن التسبيح متعلق بالمسمىّ، والاسم غير المسمى فلا تقول: سبحان اسم ربي، وإنما ذكر لفظ اسم لحكمة أخرى وهو أن الذكر محله القلب والتسبيح نوع من الذكر، وذلك غير اللفظ باللسان . والله أمرنا أن نتعبد بالقلب واللسان معا، ومعنى الآيتين: اذكر ربك وسبح ربك بقلبك ولسانك ولذلك أقحم لفظ اسم قبل الرب تنبيها على هذا المعنى . وهذا هو إعجاز النظم القرآنى [2] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا .. ﴾ العنكبوت (٨) .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا .. ﴾ الأحقاف (١٥) .

﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ .. ﴾ لقمان (١٤) .

فى آيتى العنكبوت والأحقاف ذكر (حسنا) (وإحساناً) وفى آية لقمان ترك (حسنا) .

(١) النتائج ٤٦ .
(٢) نتائج الفكر ٤٤ .

من أسرار النظم القرآني
آيات وعبر

فى العنكبوت جاءت بعد قوله تعالى: " ولنجزينهم أحسن الذى كانوا يعلمون " وبر الوالدين من أحسن الأعمال فناسب ذكر الإحسان إليهما وآية الأحقاف نزلت فيمن أبواه مؤمنان فناسب وصيته بالإحسان إليهما .

أما فى آية لقمان لما قال: حملته أمه وهنا على وهن ولما فى ذلك من شدة ما تقاسيه فى حمله وتربيته أغنى ذلك عن ذكر (حسنا) المذكوره فى العنكبوت والأحقاف [1] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ .. فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ .. ﴾ المائدة (٦) .

قرأ جماعة وأرجلكم بالنصب فدل على أن الأرجل مغسولة عطفا على (اغسلوا وجوهكم وأيديكم)، وقرئ بالجر فتدخل فى حكم المسح عطفا على (برؤوسكم) .

قال الزمخشرى: لما كانت الأرجل من بين الأعضاء الثلاثة المغسولة تغسل بصب الماء عليها كانت مظنة الإسراف المذموم شرعا فعطفت على الممسوح لا لتمسح ولكن تنبيها على وجوب الاقتصاد فى صب الماء عليها كالممسوح، وقيل إلى الكعبين فجئ بالغاية دفعا لتوهم من يظن أنها ممسوحة لأن المسح لم يضرب له غاية فى الشريعة .

(١) كشف المعانى ٢٨٩ .

وقد ذهب بعض الناس إلى ظاهر العطف فأوجب المسح [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ .. ﴾ الأنعام (١٠٠) .

لماذا لم يقل: وجعلوا الجن شركاء لله.

الجواب: تعظيما لاسم الله ؛ لأن شأن الله أعظم فى النفوس فإذا قدم (لله) وجعل بعده (شركاء) وقع فى غاية التشنيع والظلم ؛ لأن النفس منتظرة ما جعلوه لله . فإذا علم أن الأمر يتعلق بالشركاء لله كان أعظم موقعا من النفس وكان لفظ الجعل عندهم إذا تعلق بالله مستقبحا كاذبا، والقرآن يقول: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ .. ﴾.

وقوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. ﴾ وفى الآية نسبوا جعلهم لله وهذا فى حد ذاته قبيح وكون المجعول شركاء أقبح، وكون الشركاء من الجن أشد قبحا.

فتقديم الجار والمجرور (لله) لأن الإنكار متوجه إلى الجعل لله لا إلى مطلق الجعل.

وقال: (شركاء) ولم يقل (شريكا) وفقا لاعتقادهم ولم يقل (جنا) دلالة على أنهم اتخذوا الجن كله صالحا لذلك [2] .

❁❁❁

(١) الكشاف ١ / ٥٩٧ وانظر المغنى ٦٤٧ .

(٢) الكشاف ٢ / ٤٠، البرهان ٣ / ٢٠٢، ٣ / ٢٣٦ .

قوله تعالى: ﴿ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى .. ﴾ الدخان (٥٦) .

كيف استثنى الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفى ذوقه فيها ؟

المعنى أنهم لا يذوقون فيها الموت أبدا، وهو من باب التوكيد فى الدلالة، إذ يستحيل عود ما وقع، أى إن كانوا يذوقون وهو من باب الفرض المستحيل فلا يكون ذلك إلا الموتة الأولى، ويحتمل أن يكون من باب الاستثناء المنقطع. فالمعنى: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها فى الدنيا . وهذا من باب إبراز الكلام فى صورة المستحيل على طريق المبالغة مثل قوله: ﴿ .. وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ .. ﴾ وهم لا يدخلون الجنة، أصلا ومنه قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴾ أى ولكن ليس له ولد فلا أعبد سواه .

أو إن كان له ولد بزعمكم فأنا أول الموحدين، وقيل هو على تعليق فرض محال والمعلق على المحال محال . وقيل هذا من أقوال العرب (إن كان للرحمن ولد) أى ما كان للرحمن ولد . فإن نافيه بمعنى (ما) النافية [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ .. ﴾ الأعراف (١٣١) .

فجاء بلفظ الماضى مع (إذا) فى جانب الحسنة حيث أريد مطلق الحسنة لا نوع منها ولهذا عرفت، وجاء بلفظ المضارع مع (إن) فى جانب

(١) البرهان ٣ / ٤٨، الكشاف ٣ / ٥٠٧، جامع البيان للطبرى ٩ / ٦٠ .

السيئة ونكرت بقصد نوع منها، لأن السيئة نادرة بالنسبة إلى الحسنة المطلقة. وسبب ذلك أن (إذا) تكون فى المعانى المحققة الوقوع فيغلب لفظ الماضى معها لكونه أدل على الوقوع، أما (إن) فإنها تستعمل فى المعانى المحتملة وجوابها معلق على ما يحتمل فيغلب معها لفظ المضارع المحتمل الوقوع.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ الروم (٣٦).

فجاء بلفظ الماضى مع (إذا) الدالة على تحقيق الوقوع لأن الماضى أدل على الوقوع. وجاء بلفظ المضارع مع (إن) فى جانب السيئة [١].

وانظر أيضاً إلى قوله تعالى: ﴿ .. وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴾ الشورى (٤٨).

كيف أتى فى تعليق الرحمة بـ (إذا) مع الفعل الماضى المحقق الوقوع (أذقنا) وأتى فى إصابة السيئة بـ (إن) مع الفعل المضارع المستقبل الدال على أنه غير محقق وكيف أتى فى وصول الرحمة بفعل الإذاقة الدال على مباشرة الرحمة لهم وأنها مذوقة لهم، وكيف أتى فى الرحمة بقوله (منا) مضافة إليه سبحانه وأتى فى السيئة بباء السببية (بما) مضافا إلى كسب أيديهم، وكيف أكد فى الجملة الأولى التى تضمنت الإذاقة بحرف التوكيد (إنا) دون الجملة الثانية، وأسرار القرآن أكثر وأعظم من أن يحيط بها عقول البشر [٢].

---

(١) الكشاف ٢ / ١٠٦، البرهان ٤ / ٢٠١.

(٢) بدائع الفوائد ١ / ٤٦.

قوله تعالى ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ .. ﴾ البقرة (٢١٧)

لم قدم ذكر الشهر الحرام وهم لم يسألوا عن الشهر إلا من أجل القتال فيه فكان الظاهر أن الاهتمام بالقتال وتقديمه أولى. فيقول: عن قتال فى الشهر الحرام.

والجواب أن هذا السؤال لم يقع إلا بعد وقوع القتال فى الشهر وانتهاكهم حرمة الشهر الحرام.

فاهتمامهم بالسؤال إنما وقع من أجل حرمة الشهر فلذلك قدم بالذكر.

وسؤال آخر. لم أعاد ذكر القتال بلفظ الظاهر فى قوله: قل قتال فيه كبير، وكان القياس أن يعاد بلفظ الضمير فيقال: قل هو كبير.

والجواب أن إعادة لفظ القتال فائدة وهى عموم الحكم وهو أنه عام فى كل قتال وقع فى شهر حرام. ولو قال (هو كبير) لاختص الحكم بذلك القتال الواقع فى القصة وليس الأمر كذلك [١] وهى الحادثة التى وقعت فى سريّة عبد الله بن جحش.

✡✡✡

قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ يونس (٣١).

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴾ سبأ (٢٤).

---

(١) البرهان ٤ / ٤٤، نتائج الفكر ٢ / ٣.

هل فى النظم المعجز فرق بين الموضعين ؟ أى بين السماء والسماوات ؟

الجواب: أنه قد يرد لفظ السماء عبارة عن كل ما علا من السموات فما فوقها إلى العرش، وبها المعانى العلوية المختصة بالربوبية فيكون اللفظ بصيغة الجمع: السموات وقد تكون السماء عبارة عن السماء الدنيا فى العرف العام عند الناس وهو عبارة عن السحاب الذى ينزل منه الماء وكان المخاطبون فى سورة يونس مقرين بنزول الرزق المحسوس وهو المطر من هذه السماء التى يشاهدونها فلهذا ذكرت السماء عندهم مفردة ؛ لأنهم لا يقرون بما ينزل من فوق ذلك من الرحمة والوحى بخلاف آية سبأ فهم فوق إقرارهم بما ينزل من الرزق يقرون بالخير والرحمة والحكمة وكل رزق من فوق سبع سموات . فلذا جاءت جمعا فى الآية (سموات) أما رزق الأرض فيصلح فى الاثنين جميعا إذ لا ينكره أحد من المؤمن والكافر فالغيث ينزل من السماء للأرض [1] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى ۞ قَالَ هُمْ أُولَاء عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ طه

سئل موسى عن سبب العجلة، ليعلمه الله أدب السفر وهو أنه ينبغى تأخير رئيس القوم عنهم فى المسير ليكون نظره محيطا بهم ومسيطرا عليهم .

وهذا لا يحصل وهو متقدم عليهم .

---

(١) النتائج ١٦٢، البرهان ٤ / ٩ .

كما علم الله لوطا ذلك فقال له: (واتبع أدبارهم) فامره أن يكون آخرهم ولكن موسى أغفل هذا الأمر مبادرة إلى رضى الله ومسارعة إلى لقائه فى الميعاد [1] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا .. ﴾ طه

أى أكاد أزيل خفاءها، أى أظهرها، تقول العرب: أخفيته أى أزلت خفاءه كما تقول: أشكيته أى أزلت شكواه، وأعتبته أى أزلت عتابه لأن الخفاء هو الغطاء، وهو أيضا ما تجعله المرأة فوق ثيابها يسترها .

وقرأ سعيد بن جبير: أخفيها بفتح الهمزة من خفاه إذا أظهره، أى قرب إظهارها [2] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ .. وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾ النساء (٧٩) .

ما فائدة دخول الباء فى فاعل كفى (بالله)، دخلت الباء عليه لتأكيد الاتصال، أى تأكيد شدة ارتباط الفعل بالفاعل .

وقد يكون ذلك إيذانا بأن الكفاية من الله ليست كالكفاية من غيره فى عظم المنزلة .

وقيل دخلت الباء لتدل على المعنى . أى: اكتفوا بالله [3] .

---

(١) الكشاف ٢ / ١٠٣ .

(٢) الكشاف ٢ / ٥٣٢، الفخر الرازى ١ / ٢٢، القاموس (خفى) .

(٣) البرهان ٤ / ٢٥٢، المغنى ٦٣٨، المفردات ٤٣٧ .

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ .. ﴾ المائدة .

لماذا لم يقل: ومن النصارى أخذنا ميثاقهم ؟

العلة أنه لما كان المقصود فى هذه الآية هو ذمهم بنقض الميثاق المأخوذ عليهم فى نصرة الله ناسب أن يبين أنهم لم ينصروا الله ولم يفوا بوعدهم بنصرته وكان منهم مجرد التفوه بدعوى النصرة وقولها دون فعلها .

ولذا قال: ومن الذين قالوا إنا نصارى [1] وهذا تعريض لقولهم: " نحن أنصار الله " ومن ثم سموا نصارى فلم يثبتوا على ما قالوه من أنهم أنصار الله .

۞۞۞

قال قوم صالح المؤمنون به: إنا بما أرسل به مؤمنون، فكان جواب الكفرة: إنا بالذى آمنتم به كافرون . فلماذا لم يقولوا: " إنا بما أرسل به كافرون " . كما قال المؤمنون ويكون مطابقا . ولكنهم أبوا ذلك حذرا من إثباتهم لرسالته وهم ينكرونها . وقد يكون ذلك من باب التهكم كما قال فرعون: إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون . فأثبت رسالته تهكما [2] .

۞۞۞

قوله تعالى ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا .. ﴾ آل عمران .

---

(١) الكشاف ١ / ٦٠٠ .

(٢) الكشاف ٢ / ٩١ .

لم يقل له: ألا تتكلم، وإنما تكلم الناس ليعلمه أنه يحبس لسانه عن تكليم الناس خاصة مع إبقاء قدرته على التكلم بذكر الله . ولذا قال له " واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار " [1] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ .. فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ .. ﴾ الكهف

قوله: ينقضَّ أى أسرع سقوطه من انقضاض الطائر .

وقوله: (يريد) أى دنا وشرف وقرب من السقوط واستعار الإرادة للمداناة والمشارفة .

ويصور هذا التعبير أن الجدار مائل وقرب من السقوط كأنه يتكلم ويوحى إلى المشاهد بسرعة التدخل لإصلاحه واعتداله [2] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ .. اتَّقُواْ اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. ﴾ آل عمران (١٠٢) .

﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. ﴾ التغابن (١٦) .

فى الأولى قال: حق تقاته، وفى الثانية: ما استطعتم قد تحمل الأولى على التوحيد لقوله بعدها: ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، والثانية على الأعمال .

وقيل الثانية ناسخة للأولى ؛ لأنهم قالوا: أينا يطيق ذلك فنزلت، وقيل: قوله (ما استطعتم) هو معنى (حق تقاته) لأن حق تقاته فى استطاعة المسلم ؛ لأن الله هو الآمر بذلك ولا يأمر إلا بما نستطيع [3] .

---

(١) الكشاف ١ / ٤٢٨ .

(٢) الكشاف ٢ / ٤٩٤؛ القرطبى ٥ / ٤٠٦٤ .

(٣) البرهان ٢ / ٥٧ .

قوله تعالى: ﴿ .. فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُواْ فَوَاحِدَةً .. ﴾ النساء (٣) .

قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُواْ أَن تَعْدِلُواْ .. ﴾ النساء (١٢٩) .

فالأولى فيها إمكان العدل، والثانية تنفى العدل فيحتمل أن العدل فى الأولى هو توفية حقوقهن، وهذا ممكن الوقوع وعدمه، والثانية الميل القلبي وهذا لا يملكه الإنسان . والمراد بالعدل فى الثانية هو العدل التام [1] .

❁❁❁

قوله: ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ .. ﴾ ، ﴿ .. فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾، ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ .

على الترتيب مريم (٣٨)، البقرة (١٧٥)، عبس (١٧) .

هذه صيغ تدل على التعجب وهى تأتى على وجهين فى كلام العرب: ما أفْعل وأفْعل به، نحو: ما أحسن وأحْسن به، فهل يقع عند الله تعجب والتعجب تعظيم الأمر فى قلوب السامعين ومن شأن الناس أن يتعجبوا مما لا يعرف سببه وكلما خفى السبب حسن التعجب .

وهناك صيغ أخرى للتعجب نحو (كبُر) فى قوله: (كبر مقتا عند الله)، (كبرت كلمة تخرج من أفواههم)، (كيف تكفرون بالله) ففى قوله: أسمع بهم وأبصر أى: ما أسمعهم وما أبصرهم، والله لم يتعجب منهم بل دل المكلفين على أن هؤلاء قد نزلوا منزلة من يتعجب منه [2] .

(١) البرهان ٢ / ٥٨ .

(٢) البرهان ٢ / ٣١٨ .

فالتعجب هنا مصروف إلى المخاطب . أى أن المكلف علم أن هؤلاء يجب أن يتعجب منهم نحو: (فما أصبرهم على النار) [1] أى هؤلاء يتعجب منهم، وهذا كمجئ الترجى من الله فى: " لعله يتذكر أو يخشى " أى اذهبا إلى فرعون على رجائكما وطمعكما فى استجابته . فالرجاء راجع إلى المخاطبين ؛ لأن الله تعالى عالم بعاقبة أمره ويعلم الشئ قبل أن يكون . فلعل وعسى من الله واجبتان . وفى كلام المخلوقين رجاء وطمع، لأنهما فى كلام الله قطع ويقين، وفى كلام المخلوق شك وظن [2] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ .. وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ .

لا يكاد الواحد يفرق بين الخوف والخشية، فالمعنى قريب، ولكن عند تتبع المواضع التى ورد فيها الخوف والخشية، وجد أن الخشية أعلى من الخوف وهى أشد الخوف .

فالخشية تكون من عظم المخشيّ وإن كان الخاشى قويا، والخوف يكون من ضعف الخائف وإن كان المخوف يسيرا ؛ لأن الخاء والشين والياء فى تصرفاتها تدل على العظمة والخاء والواو والفاء فى تصرفاتها تدل على الضعف . لذا قال: ﴿ .. وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴾ فالله لعظمته يخشاه كل أحد أما سوء الحساب فقد لا يخافه كل أحد فسمى خوفا .

(١) قيل إن (ما) فى الآية استفهامية وليست للتعجب .

(٢) البرهان ٤ / ١٥٩، ٤٢، ٢ / ٥٧، ٣١٩ .

وقال تعالى: ﴿ .. إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. ﴾ .

وقال لموسى: " لا تخف " أى لا يكون عندك من ضعف نفسك ما تخاف منه من فرعون .

والخاشى من الله ضعيف بالنسبة لعظمة الله وإن كان قويا، فيصح أن يقال: يخشى ربه لعظمته، وأن يقال: يخاف ربه أى لضعفه بالنسبة إلى الله تعالى .

ولذا لما ذكر الملائكة وهم أقوياء قال: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ النحل (٥٠) :

فبين أنهم عند الله ضعفاء، فالخشية هى خوف يشوبه تعظيم، ومقرونه بمعرفة من يخشى منه [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ .. وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا قيما ﴾ الكهف .

إذا نفى عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة . فما فائدة الجمع بين نفى العوج وإثبات الاستقامة .

وفى أحدهما غنى عن الآخر ؟

(١) البرهان ٤ / ٧٨، بصائر ذوى التمييز ٢ / ٥٤٤ .

الجواب أن فائدة قوله: قيما توكيد، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من عوج وقيل: معنى (قيما) أنه مكمل لغيره قيم على سائر الكتب مصدق لها شاهد بصحتها .

ومعنى: لم يجعل له عوجا أنه كامل فى ذاته، والكامل فى ذاته يقدم على المكمل لغيره .

فالترتيب الصحيح ما ذكر فى الآية [1] أو قيما على مصالح العباد أى لابد لهم من الشرائع .

❁❁❁

(١) البرهان ٣ / ٢٧٧، ٢ / ٤٧٢ .

يا أيها النبى – يا أيها الرسول

نجد أن الخطاب للنبى يكون فى الأمر الخاص نحو قوله ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ .. ﴾ .

ولذا قال: " يا نساء النبى لستن كأحد من النساء " .

ولم يقل: يانساء الرسول ؛ لأنه قصد اختصاصهن عن بقية الأمة .

وإذا كان القصد بالخطاب التشريع العام فيكون بلفظ الرسول ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ .. ﴾ وإذا جاء لفظ النبى للتشريع العام يكون مع قرينه .

مثل قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاء فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ .. ﴾ الطلاق (١) .

لأن النبى هو إمامهم وقدوتهم، ولا يقومون بأمر دونه فكان النداء له خطابا لهم جميعا وهو وحده ساد مسد جميعهم . فهذا مقام التشريع والأولى به لفظ (الرسول) ولكن أتى بلفظ النبى لأنه أمر خاص به وبأمته وخص بالذكر لينوب عنهم [1].

وهذا يشبه قوله تعالى: " يا أيها النبى اتق الله " والخطاب للجميع أو المعنى واظب على التقوى واثبت عليها وازدد منها .

(١) البرهان ٢ / ٢٣٠، الكشاف ٤ / ١١٧ .

من أسرار النظم القرآني
آيات وعبر

والمراد المؤمنون ولكن الخطاب للنبى، ومن اللطائف فى التنزيل أن الله تعالى لم يأت بنداء محمد ﷺ باسمه كما قال: يآدم، ويا موسى، ويا عيسى، يا داود كرامة له وتشريفا وتنويها بفضله، وإنما وقع ذكر محمد فى الإخبار عنه فقط نحو: " محمد رسول الله " " وما محمد إلا رسول " وذلك لتعليم الناس بأنه رسول الله، وليعلمهم أن يسموه بذلك ويدعوه به وما لم يقصد به التعليم والإخبار ذكره بلفظ النبى أو الرسول فقال: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴾، وقال الرسول يا رب، ﴿ ..وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ .. ﴾ النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، إن الله والملائكة يصلون على النبى [1].

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ الحجر (٩٤) .

نقل أبو حيان عن أبي عبيدة عن رؤبة قوله: " ما فى القرآن أغرب من قوله " ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ .. ﴾ فمعنى: (اصدع): اجهر بالقرآن، أو احكم بالحق وافصل بالأمر، أو أفرق به بين الحق والباطل، وامض فى طريقك الحق، وصرح بجميع ما أوحى إليك وبلغ كل ما أمرت ببيانه ، ويقال صدع بالحجة: إذا تكلم بها جهارا، ويظهر أثر ذلك على الوجوه من القبض والانبساط وهذا هو التصديع فى قلوب الكفار .

(١) الكشاف ٣ / ٢٤٨ .

فأى كلمة من كلام العرب تؤدى هذه المعانى جملة وتفصيلا .

ومن ذلك فى التنزيل « والأرض ذات الصدع »، أى الأرض تتصدع بالنبات ، وتأمل قوله تعالى: بما تؤمر، ولم يقل بما تنهى وأصل الكلام بما تؤمر به، فصار اللفظ دالا على الأوامر والنواهى، وطلب الصدع من الرسول الأمر باتباع الدين وترك عبادة الأصنام فلم يقل بما تؤمر به وإلا لزم أن يقال: وبما تنهى عنه [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ .

انظر إلى التعبير القرآنى بلفظ (ضرب) وهو يدل هنا على أن الله ألقى عليهم النوم، أى منعوا من السمع وقال ابن عباس: سددنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها ؛ لأن النائم إذا سمع انتبه أى ضربنا عليها حجابا من أن تسمع .

أى أنا مهم الله نوما ثقيلا لا يتنبهون فيه من الأصوات . وهذا من فصيح القرآن التى أقرت العرب بالعجز عن الإتيان بمثله [2] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ .

أى ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأيام . ولما كان الإخبار للنبى العربى ذكرت التسع . وهذه الزيادة هى ما بين الحسابين الشمسى والقمرى أى

(١) البحر المحيط ٦ / ٤٩٨، الكشاف ٢ / ٣٩٩، نظرات لغوية فى القرآن ١٤٢ .

(٢) الكشاف ٢ / ٤٧٣، القرطبى ٠ / ٣٩٨٠ .

باختلاف السنين الشمسية والقمرية لأنه يتفاوت فى كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة: سنة فيكون فى الثلاثمائة تسع سنين . فأى جمال فى هذا التفصيل الدقيق وسنين هنا: عطف بيان على (ثلاثمائة) .

وقرئ: ثلاث مائة سنين بإضافة مائة إلى سنين وعدم تنوين مائة وهذا على وضع الجمع موضع المفرد لأن تمييز المائة يكون مفردا لا جمعا .

وهنا ميز مائة بالجمع (سنين) كقوله تعالى: ﴿ .. بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ والأصل: عملا [1] .

❁❁❁

قوله تعالى فى سورة المائدة: ﴿ .. وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وفى الثانية ختمها بـ (الظالمون) وفى الثالثة بـ (الفاسقون) المائدة ٤٤، ٤٥، ٤٧ .

قيل الأولى نزلت فى أحكام المسلمين والثانية فى أحكام اليهود والثالثة فى أحكام النصارى .

وقيل: ﴿ .. وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ .. ﴾ إنكارا له فهو كافر ومن لم يحكم بما أنزل الله مع اعتقاد الحق وحكم بضده فهو ظالم، ومن لم يحكم بما أنزل الله جهلا وحكم بضده فهو فاسق .

وقيل الكافر والظالم والفاسق بمعنى واحد وهو الكفر عبر عنه بألفاظ مختلفة لتجنب التكرار وزيادة الفائدة .

(١) الكشاف فى ٢ / ٤٨١، القرطبى ٥ / ٤٠٠٣ .

وقيل المراد بالثالثة اليهود وهم كافرون وزادهم فى الثانية: الظلم بعدم إعطائهم القصاص لصاحبه، وفى الثالثة: الفسق لتعديهم حكم الله تعالى [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ .. ﴾ النحل (٦١) .

وقال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ .. ﴾ فاطر .

فى آية النحل قال: ما ترك عليها وفى فاطر (على ظهرها) وفى النحل قال: بظلمهم، وفى فاطر قال: بما كسبوا لأن آية النحل جاءت بعد أوصاف الكفار بأنواع كفرهم فى اتخاذ إلهين اثنين وشركهم فى عبادة غير الله وجعلهم للأصنام نصيبا من مالهم ووأد البنات وغير ذلك . وهذا كله ظلم . فناسب قوله: (بظلمهم) ولم يتقدم مثل ذلك فى سورة فاطر وأما (عليها) فى سورة النحل لكراهية أن يجتمع ظاءان فى جملتين مع ثقلها فى لسانهم وهو قوله: بظلمهم فلو قال ما ترك على ظهرها لثقل ذلك على اللسان فقال (عليها) أى على الأرض وهو شائع كثير فى كلامهم لظهور العلم بينهم بذلك . ولما قال فى فاطر: بما كسبوا قال على ظهرها [2] . والله أعلم .

❁❁❁

(١) البرهان ١ / ٨٧، كشف المعانى ١٥٠، الكشاف ١ / ٦١٦ .

(٢) كشف المعانى ٢٢٨ .

« يا أيها الذين آمنوا »

لم ينادى الله المؤمنين بقوله: يا أيها الذين آمنوا ولم يقل يا أيها المؤمنون ؟ مع أنها مختصرة .

والجواب عن ذلك والله أعلم أن التعبير بقوله (الذين آمنوا) يشعر بتقدم حدوث إيمانهم، وعبر عنه بالفعل الماضى . فهم قد آمنوا وامتحن إيمانهم وليسوا حديثى الإيمان . وأيضا إن (أل) تستعمل للدلالة على كمال الشئ . فلو قال: (يا أيها المؤمنون) دل على أن المخاطبين هم الذين كمل إيمانهم فإذا جاء بعد النداء أمر أو نهى توهم أن ذلك خاص بمن هم كاملو الإيمان بخلاف الاسم الموصول (الذين آمنوا) فهو يشعر بمطلق الصفة فقط [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴾ طه .

وفى غير ذلك من القرآن: خلق السموات والأرض . فبدأ فى سورة طه بالأرض . فلماذا ؟

قد يكون ذلك لمناسبة رؤوس الآى فى سورة طه، أو أن خلق الأرض قبل السماء بدليل قوله: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ .. ﴾ أو أنه لما ذكر إنزال

(١) نظرات لغوية ٤٩ .

القرآن تذكرة لمن يخشى وهم سكان الأرض ناسب ذلك البدء بالأرض التى أنزل القرآن تذكرة لأهلها [1].

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ .. مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾ البقرة (٢٣٦) .

﴿ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴾ البقرة (٢٤١) .

الآية الأولى فى المطلقة قبل الدخول فالإعطاء فى حقها إحسان ليس فى مقابل شئ . أما الآية الثانية فى المطلقة الرجعية . والمتاع هنا: النفقة . فناسب حقا على المتقين [2].

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ .

إدخال (لا) النافية على فعل القسم كثير فى كلام العرب وفائدته توكيد القسم، وقيل صلة أى: زائدة، نحو قوله تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ .. ﴾ أى لكى يعلم أو هى للنفى أى: أنه لا يقسم بالشئ إلا إعظاما له، يدل عليه قوله ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ❁ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ أى أنه يستحق ما هو أكثر من ذلك .

(١) كشف المعانى ٢٥٠ .
(٢) كشف المعانى ١٢٦ .

وقيل إن (لا) نفى لكلام سابق وردّ له قبل القسم لأنهم أنكروا البعث فقيل: لا، أى ليس الأمر على ما ذكرتم .

ثم استأنف القسم وقال: لا أقسم ؛ لأن القرآن كله سورة واحدة متصل بعضه ببعضه [1].

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ .. وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا .. ﴾ .

عبر سبحانه عن وجوب الحج بعبارتين، إحداهما: لام الملك فى قوله: ولله، والثانية كلمة (على) وهى للوجوب، وأجمل فى قوله: الناس وفصل فى قوله: ﴿ .. مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا .. ﴾

ثم قال: ﴿ .. وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ .

أى ومن ترك الحج وهو مستطيع عبر عنه بالكفر، وهو تغليظ شديد فى حق تارك الحج . وقال: عن العالمين ولم يقل عنه ؛ لأن المستغنى عن كل العالمين أولى أن يكون مستغنيا عن ذلك الإنسان الواحد وعن طاعته وهو أدل على السخط [2].

وإذا كان المولى ﷻ أوجب على المستطيع الحج بكلمة (على الناس) فهو قد يوجب على نفسه للعباد نعمة تفضلا منه . فقال: وما من دابة فى

(١) الكشاف ٤ / ١٨٩، المغنى ٢٤٩ .
(٢) النتائج ٣٠٩ .

الأرض إلا على الله رزقها فقال: (على الله) وهى للوجوب وإنما هو تفضل منه، لكنه لما وعدهم بذلك أصبح خبرا، وخبر الله صدق، وما وعد به حق، فأصبح التفضل منه واجبا محقق الوقوع .

ومثل ذلك قوله: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ .. ﴾ [١] .

✿✿✿

قوله تعالى: ﴿ .. وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ إبراهيم (٣٤) .

وقال: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ النحل (١٨) .

لم ختم الأولى بقوله: إن الإنسان لظلوم كفار، والثانية بـ (إن الله لغفور رحيم) ؟

كأن الله يقول: عند النعم الكثيرة أنت آخذها وأنا معطيها . وحصل لك عند أخذها وصفان: كونك ظلوما وكونك كفارا، ولى عند إعطائها وصفان: أنى غفور رحيم . أقابل ظلمك بغفرانى وكفرك برحمتى . وبقى سؤال آخر . وهو لم خص آية النحل بوصف المنعم، وآية إبراهيم بوصف المنعم عليه ؛ لأن سياق آية إبراهيم فى وصف الإنسان وما جبل عليه فناسب ذكر أوصافه وآية النحل فى سياق وصف الله تعالى وإثبات ألوهيته وصفاته فناسب ذكر وصفه سبحانه [٢] .

(١) الكشاف ٢ / ٢٥٩ .

(٢) انظر البرهان ١ / ٨٦ .

تأمل درجة البلاغة وهذه التراكيب وذلك النظم القرآنى المبدع .

✿✿✿

قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ إبراهيم (٥) .

لم يقل صبور ولا شكار . فما فائدة التغاير وكلاهما للمبالغة . ولم أتى (صبار) على وزنه فعّال وشكور على وزن فَعُول ؟

لأن نعم الله مستمرة متجددة فى كل حين وأوان فناسب (شكور) ؛ لأن صيغة فعول تدل على الدوام كصدوق وغفور . أما الحوادث والمصائب المحتاجة إلى الصبر عليها فليست عامة بل تقع فى بعض الأحوال دون بعض فناسب (صبار) لأن (فعّال لا يشعر بالدوام، ولمناسبة رؤوس الآى [١] .

وتأمل قوله تعالى: ﴿ .. وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ ولم يقل الشاكر، لأن شكور فيه مبالغة، أى الموفى نعم الله حقها من الشكر، وهؤلاء قليلون، وذلك أمر صعب .

ومهما حاول العبد الشكر فسيكون قاصرا . أما (شاكر) فهو الذى يشكر قدر جهده وذلك كثير وحاصل، ولذا قال فى إبراهيم: شاكرا لأنعمه، وقال فى نوح " إنه كان عبداً شكورا " [٢] ولذا قال: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ .

✿✿✿

(١) كشف المعانى ٢٢٠ .

(٢) المفردات للراغب ٢٦٥، البرهان ٢ / ٥١٤ .

قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾ الأنعام (٩٧، ٩٨) .

لم قال (يعلمون) مع ذكر النجوم، وقال: (يفقهون) مع ذكر إنشاء بنى آدم من نفس واحدة ؟

لأن إنشاء الإنس من نفس واحدة، وتصريف أحوالهم من حياة أو موت ألطف وأدق صنعة وتدبيراً فكان ذكر الفقه وهو أدنى درجات العلم أى عبارة عن الفهم متطابقا لذلك . يقال: فلان لا يفقه شيئا وذلك أذم فى العرف من قوله: فلان لا يعلم شيئا . ويفقهون هنا مضارع فقه بكسر القاف إذا فهم ولو أدنى فهم، وليس من فقُه بضم القاف أى صار فقيها وهو درجة عالية فى الفقه والعلم، وجهل الإنسان بنفسه وبأحواله وعدم النظر فيها أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك وسيرها وتقلبها فناسبه العلم ؛ لأن حساب النجوم والشمس والقمر يختص بالعلماء [1] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ .. ﴾ البقرة (٤٩) .

وفى إبراهيم (ويذبحون) بالواو .

(١) الكشاف ٢ / ٤٠، كشف المعانى ١٩٣ .

وفى الأعراف ١٤١ (يقتلون) .

لأنه جعل (يذبحون) فى البقرة بدلا من يسومونكم أى تفسير للعذاب وبيان له وخص الذبح بالذكر لعظم وقعه عند الأبوين وأشد على النفس .

وفى سورة إبراهيم تقدم قوله: ﴿ .. وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللهِ .. ﴾ .

وقوله: ﴿ .. اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ .. ﴾ .

فناسب العطف على سوم العذابَ (ويذبحون) للدلالة على أنه نوع آخر كأنه قال: يعذبونكم ويذبحون .

وقيل: آيتا البقرة والأعراف من كلام الله تعالى فلم يعدد المحن، وآية إبراهيم من كلام موسى فعددها . أما قوله فى الأعراف: يقتلون فهو من تنويع الألفاظ [1] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ .. ﴾ الأنعام (١١) .

وقوله: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا .. ﴾ النمل (٦٩).

ما الفرق بين قوله: ثم انظروا وقوله: فانظروا ؟

الجواب: تدخل الفاء لإظهار السببية، أى جعل النظر مسببا عن السير، فكأنه قال: سيروا لأجل النظر ولا تسيروا سير الغافلين، وقوله: ثم انظروا معناه إباحة السير فى الأرض للتجارة وغيرها من المنافع والنظر فى آثار الهالكين ونبه على ذلك بـ (ثم) لتباعد ما بين هذا وذاك [2] لكثرة القرون

(١) الكشاف ٢ / ٣٦٨، كشف المعانى ٩٥ .

(٢) الكشاف ١ / ٦٤٩، كشف المعانى ١٥٦ .

وإيغالها فى أزمنة متطاولة، وثم تدل على التراخى والبعد، والآيات التى لم تذكر فيها القرون والأزمنة يأتى بالفاء .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿.. وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ .

جاءت (أذن) على الإفراد والتنكير، للإيذان بأن الوعاة فيهم قلة، وتوبيخ الناس بقلة من يعى منهم . وهذا مثل قوله تعالى: ﴿.. وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ..﴾ فنكر النفس تقليلا للذى ينظر فى أمر حياته وهذه دعوة للثبات على الوعى والثبات على الحق والنظر فى أمر الآخرة .

ومن ذلك قوله: ﴿وَلاَ تَتَّخِذُواْ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ..﴾ فنكر (قدم) وأفردها لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه فكيف بأقدام كثيرة وأيضاً لإفادة التقليل [1]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ..﴾ نكر أمة تنبيها على قلة العاملين بذلك وأنه لا يخاطب به إلا الخواص.

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُواْ أَيْدِيَهُمَا ..﴾ المائدة (٣٨) .

جاء التعبير بالجمع فى (أيديهما) وسياق الظاهر التثنية أى يديهما .

والسر فى التعبير بالجمع فى هذه الآية والمراد به التثنية ؛ لأن كل شئ موحد من خلق الإنسان مثل الرأس والبطن والظهر إذا ذكر مضافا إلى اثنين

(١) الكشاف ٢ / ٤٢٧، ٤ / ١٥١ .

فصاعدا جمع فيقال: هشمت رؤوسهما وملأت ظهورهما وبطونهما [1] ومنه قوله تعالى ﴿.. فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ..﴾ فاكتفى بتثنية المضاف إليه عن المضاف، وإن كان فى كل شئ منها اثنان نحو اليدين والأذنين والفخدين فإن وضع الجمع موضع التثنية لا يطرد، وإنما يحفظ ولا يقاس عليه ومن ذلك قوله: أيديهما والتثنية فى (أيديهما) للنوعين أى الذكر والأنثى ولكن جمع الأيدى حيث كان لكل سارق يمين واحدة والمراد اقطعوا أيمان النوعين، والأيدى جمعت لجنس السارقين والسارقات .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ ..﴾ الصف (٨) .

لم جاء باللام فى ليطفئوا بعد (يريدون)، وفعل الإرادة يتعدى بغير اللام .

والجواب أن هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة تأكيدا له، لأن اللام فيها معنى الإرادة أيضاً كما تقول: جئتك لإكرامك أى مريدا إكرامك . والأصل: يريدون أن يطفئوا كما فى جاء فى سورة التوبة آية ٣٢ .

وقد يكون اللام للتعليل والمفعول محذوف . والتقدير: يريدون الافتراء لأجل أن يطفئوا وعند الكوفيين لام التعليل ناصبة تقوم مقام (أن) الناصبة .

تقول: أمرتك لتقوم مثل أمرتك أن تقوم بدليل: يريد الله أن يخفف عنكم مثل قوله: وأمرنا لنسلم لرب العالمين، أى أن نسلم .

(١) معانى القرآن للفراء ١ / ٣٨٧، والبحر المحيط ٣ / ٤٨٣ .

وفى الآية تهكم بهم حيث إطفاء نور الله بأفواههم ومثلهم بحال من ينفخ فى نور الشمس بفمه ليطفئه [1] .

وقد يكون ضمن الفعل (يريدون) معنى فعل آخر وهو (يسعون) أى يسعون لإطفاء نور الله وهذا يدل على أن إرادتهم سعى وعمل وهذا أبلغ فى جرمهم .

۞۞۞

فى قوله تعالى: ﴿ .. وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ .. ﴾ هود (٩٤) . فى قصة شعيب، وفى قصة صالح ﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ .. ﴾ هود (٦٧)

قال " وأخذت) فى قصة شعيب، و(أخذ) فى قصة صالح لأن الصيحة فيها معنى العذاب والخزى ؛ لأنها جاءت بعد: ومن خزى يومئذ، فجاء التذكير فى (وأخذ) فى قصة صالح، بخلاف قصة شعيب فلم يذكر فيها ذلك .

وقد يكون السبب أن الصيحة يراد بها المصدر وهو الصياح فإذا قصد ذلك يجئ الفعل مذكرا وقد يكون فى قصة شعيب (وأخذت) بالتأنيث لأن العذاب الذى أصاب قوم شعيب وصف مرة بالرجفة (فأخذتهم الرجفة) ومرة بالظلة، ﴿ .. فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ .. ﴾، وجاءت بعد ذلك الصيحة بالتأنيث، لتناسب الرجفة والظلة فقال: وأخذت .

(١) الكشاف ٤ / ٢٩٩ كشف المعانى ١٩٥ .

وكل ما جاء من هذا الباب يجوز أن ترده إلى اللفظ فيذكر وإلى المعنى فيؤنث، لأن اسم الجنس تأنيثه غير حقيقى [1] يجوز تذكيره وتأنيثه .

نحو: ﴿ .. جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ .. ﴾ يونس (٢٢)، ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً .. ﴾ الأنبياء (٨١)، ﴿ .. أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ الحاقة (٧)، ﴿ .. كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ القمر (٢٠) .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴾ الحجر (٣٠) .

لم قال كلهم أجمعون ؟ واللفظان يفيدان التوكيد والجواب: أن (كلهم) يفيد الشمول والإحاطة، فلابد أن يفيد (أجمعون) قدرا زائدا على ذلك وهو اجتماعهم فى السجود، ولأن الملائكة لم يتخلف أحد منهم عن امتثال الأمر، وقد وقت لهم بوقت محدد وهو قوله: فإذا سويته ونفخت منه من روحى، فلما حصل ذلك سجدوا كلهم فى آن واحد ولم يتخلف منهم أحد . ولذا قال (كلهم) وأجمعون يعنى فى وقت واحد وليست أوقات مختلفة [2] .

وقال السهيلى: فإذا قلت جاء القوم كلهم وكان العدد كثيرا توهم أنه قد شذ منهم البعض فاحتيج إلى توكيد أبلغ من الأول وهو أجمعون [3] .

۞۞۞

(١) البرهان ٣ / ٣٦٧ .

(٢) البرهان ٢ / ٣٨٨ .

(٣) النتائج ٢٨٨ .

قوله تعالى: ﴿ .. يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ .. ﴾ .

أى يجعلون طرف الإصبع، أى عبر بالكل وأراد الجزء فلم عبر بالأصابع دون الأنامل وهى أطراف الأصابع، أو السبَّابة مثلا ؛ لأن السبَّابة فعّاله من السبّ فكان اجتنابها أولى بآداب القرآن، وهم فى لغتهم قد تركوا لفظ السبابة وقالوا: المسبحه والمهلله والدعّاءة، وهى ألفاظ مستحدثه لم يتعارفها النس فى ذلك العهد، وعبر بالأصابع وهى أبلغ فى أداء المعنى ؛ لأن فيه إشعارا بأنهم يبالغون فى إدخال أصابعهم فى آذانهم فوق العادة المعتاده فى ذلك فرارا من شدة الصوت، فلذا عبر بالأصابع تنزها عن اللفظ المكروه [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ المائدة (١١٨) .

قوله: (إن تغفر لهم) يوهم أن الفاصلة تكون: فإنك أنت الغفور الرحيم .
فلم قال: العزيز الحكيم ؟ لأننا لو دققنا النظر نجد أن العزيز فى صفات الله هو الغالب، ولأنه لا يغفر لمن يستحق العذاب إلا من ليس فوقه أحد يرد عليه حكمه فهو العزيز الغالب، والحكيم أى الذى يضع الشئ فى موضعه .
والمعنى: إن تغفر لهم مع استحقاق العذاب فلا معارض لك والحكمة فيما فعلته إن عفوت عمن يستحق العقوبة ولو قال عيسى: " فإنك أنت الغفور

(١) البرهان ٢ / ٣٠٦، الكشاف ١ / ٢١٧ .

الرحيم لأوهم الدعاء لهم بالمغفرة "، وعيسى لم يرد أن يستغفر لهم لأنه لا يسوغ لنبى ولا لغيره أن يدعو لمن مات على شركه [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً .. ﴾ البقرة (٣٥) .

وفى الأعراف ١٩ ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ .. ﴾ .

فى الآيتين نظرات :

الأول: فى البقرة قال (وكلا) وفى الأعراف (فكلا) بالفاء لأنه فى البقرة معنى (اسكن) أى من السكون الذى هو الإقامة والاستقرار وهو ممتد فالمراد الاستقرار والتمتع بالأكل، فالواو دالة على الجمع بين السكنى والأكل ولذا قال فيه (رغدا) .

ولو جاءت الفاء لوجب تأخر الأكل إلى الفراغ من الإقامة .

وفى الأعراف معنى (اسكن) من المسكن وهو اتخاذ الموضع سكنا فكانت الفاء أولى، لأن اتخاذ المسكن لا يستدعى زمنا متجددا وقيل إن ما فى الأعراف خطاب لهما قبل الدخول وما فى البقرة بعد الدخول .

الثانى: لم يقل اسكنا كما قال: فكلا وقال: ولا تقربا، وقال فتكونا ؛ لبيان أن الزوجة تتبع زوجها فى السكن باختيار الزوج مسكن الزوجية من جهته حيث قال تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ .. ﴾ [2] .

(١) نتائج الفكر ٢٠٦ .
(٢) البرهان ١ / ١٢٨ .

قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ .. ﴾ البقرة (٢٢٢) .

كرر كلمة المحيض فى الآية بعد إضماره فى قوله: ﴿ .. قُلْ هُوَ أَذًى .. ﴾ وكان يمكن أن يقال فى غير القرآن: يسأل الناس عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فيه، أو يقال: يسألون عن المحيض قل المحيض أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض، ويأبى القرآن أن تتكرر كلمة المحيض ثلاث مرات، وقال ابن القيم: لم يقل فاعتزلوا النساء فيه تعليقا لحكم الاعتزال بنفس الحيض وأنه هو سبب الاعتزال [1] .

وقد يكون مجئ الآية على هذا النسق الذى جاءت عليه هو أن (المحيض) فى قوله: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ .. ﴾ هو مصدر ميمى معناه: الحيض، ويكون الحيض أذى ذكره مضمرا فى قوله: ﴿ .. قُلْ هُوَ أَذًى .. ﴾ أما المحيض فى آخر الآية ﴿ .. فَاعْتَزِلُواْ النِّسَاء فِي الْمَحِيضِ .. ﴾ فهى ليست مثل المحيض الأولى، ولكنها اسم مكان أو اسم زمان .

أى فى وقت الحيض أو فى زمان الحيض . ويترتب على هذا أحكام فقهية حول ما يعتزل من الحائض فى زمن حيضها ويكون معنى الآية: ويسألونك عن الحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى مكان الحيض أو فى زمان الحيض [2] .

وانظر إلى الجمال فى قوله: ﴿ .. حَتَّىَ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ .. ﴾ قوله: يطهرن من طهر، وتطهرن من تطهرَّ .

(١) بدائع الفوائد ٢ / ٤٨ .

(٢) البحر المحيط ٢ / ٤٢٢، نظرات لغوية فى القرآن الكريم ص ٦٩ .

يقال: طهرت المرأة إذا انقطع دم حيضها .

ويقال: تطهرت المرأة أى اغتسلت بعد الحيض أو النفاس والجمع بين الفعلين فى الآية للدلالة على اشتراط الطهر والتطهر معا قبل إتيان النساء بعد الحيض فلو حصل الطهر دون التطهر أو الغسل دون الطهر لما جاز الجماع .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴾ القصص .

عندما التقط آل فرعون موسى ظنوا كما ذكرت الآية أنه سيكون لهم قرة عين ﴿ .. قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. ﴾ ولكن لم يعلموا أن موسى سيصير عدوا لهم فى المستقبل فجاءت الآية بخلاف قصدهم وبيان عاقبتهم .

وذلك بدخول لام العاقبة ﴿ .. لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴾ وتسمى لام الصيرورة أو لام المآل وليست لام التعليل لأنهم لم يلتقطوه ليكون عدوا لهم، وإنما اللام التى تبين العاقبة بعد الالتقاط . وذلك كما قال الشاعر كما لخراب الدهر تبنى المساكن .

أى أن عاقبة البناء الخراب فى النهاية، وإن كان البناء فى الحال والظاهر للفرح والسرور والنعمة، وتأمل التعبير فى الآية بلفظ (التقطه) والالتقاط وجود الشئ من غير طلب ولا إرادة . ومنه: اللقطة، ومنه فى سورة يوسف: ﴿ .. يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ﴾ أى يجده من غير طلب [1] .

(١) القرطبى ٥ / ٣٣٦٣ .

قوله تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم .. ﴾ .

لم أخر الإيمان بالله عن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مع تقدم الإيمان عليهما فى الأصل ؟

❁❁❁

لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فهما أظهر فى بيان الخيرية التى اختصت بها هذه الأمة والمقصود بيان الخيرية فى هذه الأمة باختصاصها بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. وقد يكون تأخير الإيمان فى الآية ليجاور قوله: ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ المسد (٤،٥).

لفظ الجيد لا يطلق إلا على المرأة خاصة وهو موضع الحلية من عنقها أما العنق فهو لفظ عام للرجل والمرأة وغيرهما .

وحين يراد العذاب والغل يطلق لفظ العنق، نحو قوله تعالى: ﴿ .. وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا .. ﴾ سبأ (٣٣) .

وقوله: ﴿ .. وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ .. ﴾ الرعد (٥) .

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا .. ﴾ يس (٨) .

ولما كان المراد فى سورة المسد الغل والتعذيب كيف جاء بـ الجيد بدلا من العنق ؟ والجواب والله أعلم .

أن النساء مغرمات بالتحلى والحلى . وحينما تبشر المؤمنات بلبس أحسن الحلى يوم القيامة تبشر امرأة أبى لهب بحلى من نوع خاص لا يليق إلا بمثلها وهو حبل من جهنم يطوق عنقها وهذا من باب البشارة بالسوء مثل: فبشرهم بعذاب الأليم وأتى بلفظ (الجيد) تنكيلا بها لأن المرأة المؤمنة تحلى فى جيدها وهى تحلى فى جيدها أيضاً ولكن بنوع خاص من الحلى وهو حبل من مسد [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ .. ﴾ النور (٧) .

وقال: ﴿ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا .. ﴾ النور (٩) .

قال فى الأولى (لعنة) وفى الثانية (غضب) لماذا ؟ قد يكون للتفنن فى الخطاب لكراهة التكرار . أو لأن الغضب أشد من اللعن ؛ لأنه مقدمة الانتقام واللعن هو الطرد . أى إبعاد مجرد وقد لا ينتقم . وخصها الله بالغضب لاحتمال كذبها وتغليظا عليها لأنها هى أصل الفجور ومنبعه والداعية إليه . ولذلك كانت مقدمة فى آية الجلد: الزانية والزانى [2] .

❁❁❁

(١) نظرات لغوية فى القرآن ٢١٤ .

(٢) الكشاف ٣ / ٥٢، كشف المعانى ٢٧١ .

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى ۝ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴾ النجم ٤٣ – ٤٥ .

أتى بضمير الفصل فى الأولين دون الثالث ؛ لأن بعض الجهال قد يثبت هذه الأفعال لغير الله كقول نمرود أنا أحيي وأميت . فقال: (وأنه هو) أى هو وحده الذى يفعل ذلك لا غيره . وأما الثالث فى شأن الخلق فلم يدع ذلك أحد من الناس لا حقيقة ولا مجازا فقال (وأنه خلق) دون ذكر (هو) [1] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ .. تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً .. ﴾ المائدة (١١٠) .

كلام عيسى فى المهد معجزة، فكيف يكون كلامه وهو كهل معجزة ؟

والكهل ما بين الثلاثين إلى الستين . والجواب والله أعلم أنهم كانوا يقولون: إن من يتكلم فى المهد لا يعيش ولا يمتد به العمر .

فكانت المعجزة أعظم حيث خولفت العادة . فعاش عيسى عليه السلام وتكلم فى حال كهولته [2] .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ .. ﴾ الإسراء (٣٥) .

لم قيد إيفاء الكيل بقوله: (إذا كلتم) ولم يقيد الميزان بقوله: (إذا وزنتم) .

---

(١) المغنى ٤٩، البرهان ٢ / ٤٥٠ .

(٢) البرهان ٣ / ٧١ .

الكيل إما أن يكيله الإنسان أو يكتاله . فالكيل بيع . والاكتيال شراء يقال: كال له الطعام: أعطاه كيلا واكتال عليه: أخذ منه كيلا [1] .

والبيع هو الذى يقع فيه البخس والغبن قال تعالى: ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ المطففين (٣) .

أما الاكتيال وهو الشراء لا حاجة إلى الأمر بإيفائه ؛ لأن المشترى حريص على ذلك دون توصية: قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُواْ عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴾ أى حين شرائهم حريصون على الاستيفاء .

وفى الآية التى معنا لو لم يذكر قوله: (إذا كلتم) لأوهم أن الإيفاء مطلوب فى الكيل والاكتيال معا وإنما المراد فى الآية وقت الكيل أى عند البيع لا وقت الاكتيال وهو الشراء . لأن المشترى مأمور أن يتسامح عند الكيل له .

وقد يكون المراد أن يتم الإيفاء ساعة . الكيل بألا يتأخر عنه، أى لا ينقص ثم يوفيه فى وقت آخر [2] .

أما عدم تقييد الوزن بـ (إذا وزنتم) فقد يكون ذكر (القسطاس المستقيم) كافيا عن ذكر هذا القيد، لأنه إذا وزن بميزان مستقيم لا يتصور الجور غالبا .

۞۞۞

قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ .. ﴾ الملك (١٩) .

---

(١) المفردات ٤٤٤ .

(٢) تفسير أبى السعود ٥ / ١٧١ .

في الآية الكريمة وقفات:

الأولى: (أو لم يروا) . قال الراغب الأصفهانى: إذا عُدّى رأيت بـ (إلى) اقتضى معنى النظر المؤدى إلى الاعتبار فضمنت (لم يروا) يعنى (لم ينظروا) والدليل تعدىَ الفعل بـ (إلى) لأن المقصود رؤية الطير حالة كون الطوائر قاصدين أو غير قاصدين وذلك للاعتبار .

الثانية: تقدير هذا الكلام (أغفلوا ولم يروا) ؟ فحذف المعطوف عليه وهذا يكثر فى مثل هذا الأسلوب .

الثالثة: (فوقهم) كلمة تدل على طلب النظر والاعتبار ليدل على قرب الطير منهم ولا يطلب منهم الاعتبار بشئ بعيد عنهم عسير عليهم .

الرابعة: التعبير عن بسط الأجنحة بالاسم (صافات) وعطف القبض عليه بالفعل (يقبضن) وهو مضارع ؛ لأن الطائر أكثر حالاته بسط للأجنحة، وقبضها قليل فكان الأصل فى الطيران البسط فعبر عنه بالاسم الدال على الثبوت والدوام، وعبر عن القبض بالفعل الدال على التجدد والحدوث [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ .. يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ .. ﴾ العنكبوت ٦٢ .

وفى القصص ٨٢ ﴿ .. يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ .. ﴾ .

---

(١) الكشاف ٤ / ١٣٨، نظرات لغوية ٢٠٤ .

وفى الرعد ٢٦ ﴿ .. يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِرُ .. ﴾ .

فى الأولى قال (له) وفى الثانية ترك (له) وفى الثالثة ترك (من عباده)، و(له) لماذا ؟

لأن أحوال الناس فى الرزق ثلاثة .

الأول:- من يبسط رزقه تارة ويضيق عليه أخرى ويفهم من آية العنكبوت بقوله تعالى (له) .

الثانية:- يوسع على قوم مطلقا، ويضيق على قوم مطلقا ويفهم من آية القصص .

الثالثة:- الإطلاق من غير تعيين بسط ولا قبض فأطلق من غير ذكر (عباد) .

وآية القصص تقدمها قصة فاروق فناسب الحال الثانى أنه يبسط الرزق لمن يشاء مطلقا لا لإيمانه وفضله ولكن لمشيئته مع أن الله يضيق الرزق على الأنبياء مع كرامتهم وشرفهم [1] .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ .. ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا .. ﴾ الحج ٥ .

جاء بلفظ (طفل) مفرد فى موضع الجمع، وقد حسن لفظ الواحد هنا لأنه موضع تصغير بشأن الإنسان وتحقير أمره فضآلة اللفظ لضآلة المعنى وقد يكون الإفراد هنا للدلالة على الجنس، أو باعتبار كل واحد منهم [2] .

---

(١) كشف المعانى ٢٩١ .

(٢) المحتسب لابن جنى ٢ / ٣٦١، الفخر الرازى ٦ / ١٤٥ .

ووضع المفرد موضع الجمع شائع في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ .. إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ طه ٦٩ .

فجاء بـ (ساحر) مفرداً وسياق الآية جمع إنما صنعوا كيد سحرة وأيضاً قصد هنا إلى جنس السحرة لا عددهم ويدل على ذلك قوله: ولا يفلح الساحر أي جنس الساحر فقصد الجنس لا العدد.

وأيضاً تأتي كلمة (ضيف) في اللفظ كأنها مفرد ولكنها مصدر تدل على المفرد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث كما جاءت في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ﴾ الحجر ٦٢ .

فجاء (ضيفي) دالا على الملائكة، وقد يكون ذلك لأن الملائكة جنس واحد فعبر عنه بالإفراد أي المقصود جنس لا عدد ومثل ذلك ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (١) .

ومن ذلك لفظ (أحد) في قوله تعالى: ﴿ .. لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ .. ﴾ فظاهر السياق التعبير بالجمع ولكن (أحد) دخلت عليها (من) فصارت للعموم نحو قوله تعالى: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ الحاقة ٤٧ .

ويدل على أن (أحد) بمعنى الجمع هنا وصفه بـ (حاجزين) وهي جمع وقد يكون الإتيان بلفظ (أحد من رسله) على الإفراد لأن الشرائع كلها دين واحد واجتمعت الرسل في رسول واحد . فقال: أحد بالإفراد (٢) .

(١) الفخر الرازى ٥ / ٣٨٣ .
(٢) البحر المحيط ٢ / ٣٧٥ والفخر الرازى ٢ / ٣٦٥ .

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَهِ النَّاسِ﴾

بدأ بـ (رب) ثم (ملك) ثم إله فما حكمة هذا الترتيب . ولم أعاد ذكر (الناس)؟

الجواب والله أعلم أن ملك الناس وإله الناس عطف بيان على (رب الناس) .

وقد يقال لغير الله (رب الناس) كقوله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. ﴾ وقد يقال ﴿ .. مَلِكِ النَّاسِ .. ﴾ لغير الله و أما ﴿ .. إِلَهِ النَّاسِ﴾ فخاص لا يشركه فيه أحد . فجعل غاية للبيان .

فأتى بلفظين في الأول وهما رب الناس وملك الناس لاحتمال الشركة ثم ختمها بما يختص به هو وحده وأعاد ذكر كلمة الناس . لأن البيان يقتضي الإظهار والتكرار (١) .

❀❀❀

(١) الكشاف ٤ / ٣٠٣ .

الكنايات فى القرآن الكريم

الكناية عن الشئ الدلالة عليه من غير تصريح باسمه أى يريد المتكلم إثبات معنى من المعانى فلا يذكره باللفظ الموضوع له فى اللغة ولكن يأتى بمعنى يجعله دليلا عليه ومثل ذلك قولهم فى اللغة: شد المئزر وهو كناية عن الجد والنشاط، وقولهم فى النساء: القوارير لضعف قلوبهن، وقولهم: فلان نؤوم الضحى أى يتأخر فى نومه وهو كناية عن كسله وضعفه وهكذا.

ومن ذلك التعريض والكناية عند خطبة النساء عند وجود المانع، ويشار إلى ذلك بأى لفظ دال على المقصود فقال تعالى: ﴿ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاء .. ﴾ البقرة ٢٣٥ .

وقوله تعالى: ﴿ .. فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ .. ﴾ وهو كناية عن عدم ذكر أى لفظ يدل على الضيق والتأفف من الوالدين .

ومن الكنايات فى القرآن قوله تعالى: ﴿ .. وَلَكِن لاَّ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا .. ﴾ البقرة ٢٣٥ .

فكنى عن الجماع بالسر والسر كناية عن النكاح [1] والجمال فى هذا أن النكاح يكون بين الآدميين فى السر ولا يسره من غير الآدميين إلا الغراب فإنه يجعله فى السر ، ومن عادة القرآن الكريم الكناية عن الجماع باللمس والملامسة والمباشرة، والرّفث، والدخول والنكاح ونحو ذلك فقال: (فالآن

(١) الكشاف ١ / ٢٣٧٣، البرهان ٢ / ٣٠٣ .

باشروهن) فكنى بالمباشرة عن الجماع لما فيه من التقاء البشرتين وقوله تعالى: ﴿ .. أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء .. ﴾ .

وقوله: ﴿ .. هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ .. ﴾ .

واللباس من الملابسه وهى الاختلاط مثل الملامسة .

وقال: ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ .. ﴾ والحرث هو موضع الإنبات .

وقوله تعالى: ﴿ .. الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ .. ﴾ بمعنى (أفضى) والرفث عباره عما يستقبح ذكره من الجماع ودواعيه ولا يقال (رفث إلى) فقد ضمن (رفث) معنى (أفضى) وهو يتعدى بـ (إلى) وقال: (وقد أفضى بعضكم إلى بعض) فكنى بذلك عن الخلوة والجماع .

وقوله تعالى: ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا .. ﴾ كناية عما تطلبه المرأة من الرجل .

ولم يسبق للعرب استعمال هذه الكناية الرائعة عن طلب الجماع فهى من ابتكارات القرآن الكريم .

وقوله تعالى: ﴿ .. فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفًا .. ﴾ الأعراف ١٨٩ .

ومن ذلك قوله تعالى فى مريم وابنها ﴿ .. كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ .. ﴾ وأكل الطعام يستلزم البول والغائط ولكن استقبح ذكرهما [1] .

(١) البرهان ٢ / ٣٠١، الكشاف ١ / ٣٦٢، ١ / ١٦٢ .

وقد بين الزركشى أن القرآن صرح بلفظ الفرج فى قوله ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. ﴾ وليس هذا هو الفرج الحقيقى المعروف وإنما هو من لطيف الكنايات وأحسنها وهو كناية عن فرج القميص أى لم يعلق بثوبها ريبة فهى طاهرة الأثواب وفروج القميص أربعة: الكمان والأعلى والأسفل . وليس المراد غير هذا [1] .

ومن ذلك فى القرآن أيضاً: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ .. ﴾ كناية عن الندم والحسرة، وقوله: ﴿ .. فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ .. ﴾ عن الندم .

۞۞۞

(١) البرهان ٢ / ٣٠٥ .

من أساليب القرآن البديع

للقرآن الكريم خصائص فى أسلوبه ونظمه وتركيب الجمل فيه واختيار ألفاظه بعناية فائقة فقد يوضع لفظ مكان لفظ، أو حرف موضع حرف، أو مجئ لفظين مختلفين بمعنى واحد فى آيتين متفرقين والقصة فيهما واحدة نحو: فانفجرت، وفى الأخرى فانبجست أو يأتى الضمير مثنى وهو عائد على مفرد أو التعبير بالفعل بدلا من الاسم، وقد أشار الجاحظ إلى ذلك فقال: " وقد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ألا ترى أن الله تعالى لم يذكر فى القرآن (الجوع) إلا فى موضع العقاب، أو فى موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون (السغب) ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة وكذلك ذكر المطر لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر وذكر الغيث " [1] .

ومن بلاغة القرآن وفصاحته وتنوع ألفاظه إبدال كلمة بأخرى . انظر إلى قوله تعالى فى سورة البقرة: ﴿ .. مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ وفى المائدة ﴿ .. مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا .. ﴾ والمعنى واحد وفى سورة طه ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا .. ﴾ وفى النمل: فلما جاءها وانظر إلى قوله فى النمل ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ .. ﴾ وفى الزمر ﴿ .. فَصَعِقَ .. ﴾ .

(١) البيان والتبين ١ / ٢٠ .

وانظر إلى قوله فى النساء والأنفال: " ومن يشاقق الرسول "، وفى الحشر: "ومن يشاق " بالإدغام وفى الأنعام ﴿ .. لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ وفى الأعراف ﴿ .. يَضَّرَّعُونَ .. ﴾ .

وفى التوبة: ﴿ .. جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. ﴾ وفى غيرها من السور ﴿ ..تَجْرِي مِن تَحْتِهَا .. ﴾ .

وانظر إلى نعيم الجنة: ﴿ .. كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴾ الإنسان (٥) .

وفى أخرى: ﴿ .. كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ الإنسان (١٧) .

فأشار فى الأولى إلى برودتها وطيبها، وفى الثانية إلى طعمها ولذتها ؛ لأن العرب كانت تستطيب الشراب البارد وتستلذ طعم الزنجبيل [1] .

وانظر إلى قوله فى عذاب جهنم: ﴿ جَزَاء وِفَاقًا ﴾ .

وفى الجنة: ﴿ .. عَطَاء حِسَابًا ﴾ .

لأن الحسنة بعشر أمثالها فناسب ختمها بلفظ الحساب، وجزاء السيئة بمثلها فناسب الجزاء قوله: وفاقا .

وفى النساء ٧٧ {.. وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلاً} وفى أخرى قال: ﴿ .. وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ والنقير هو النقرة فى ظهر النواة، وهو مثل فى القلة مثل الفتيل والقطمير، ﴿ .. مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ .

(١) كشف المعانى فى ٣٧٠ .

وانظر إلى قوله: ﴿ .. لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ .. ﴾ البقرة (٢٨٦) .

قال فى الحسنات: ﴿ .. مَا كَسَبَتْ .. ﴾ وفى السيئات: ما اكتسبت لأن الذنوب يوصل إليها بالشهوة والشيطان فهى فى حاجة إلى جهد وعمل واكتساب أما الحسنة فإنها تنال بهبة من الله من غير واسطة شهوة [1] .

قال الزمخشرى: " فإن قلت لم خص الخير بالكسب والشر بالاكتساب ؛ قلت: فى الاكتساب اعتمال فلما كان الشر مما تشتهيه النفس وهى منجذبه إليه وأمارة به كانت فى تحصيله أشد وأجد ولما لم تكن كذلك فى باب الخير وصف بالكسب [2] .

فلما كانت السيئة ثقيلة وفيها تكلف زيد فى لفظ فعلها .

وقد تختلف الألفاظ ؛ لأن المقصود هو المعانى، والألفاظ دالة على هذه المعانى ولم تكن الألفاظ باللسان العربى بل بألسنة المخاطبين حالة وقوع ذلك المعنى فلما أديت تلك المعانى إلى هذه الأمة أديت بألفاظ عربية تدل على معانيها مع اختلاف الألفاظ واتحاد المعنى فلا فرق بين قوله تعالى: ﴿ .. أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ وقوله: ﴿ .. لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ فى الدلالة على معنى واحد، وهو عدم السجود ولا فرق بين: " مالك لا تسجد " و " ما منعك أن تسجد " والمعانى واقعة فى القصص القرآنى قد يذكر بعضها فى موضع، وبعضها فى موضع آخر . مثل قوله: ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ

(١) نتائج الفكر ٣٥٣ .

(٢) الكشاف ١ / ٤٠٨ .

.. ﴾ وفى أخرى ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ .. ﴾ ففى قصة موسى فى سورة النمل ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .

وفى طه فى القصة نفسها ﴿ .. لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴾ .

ولذا جاءت قصة موسى فى سور، وعلى طرق شتى وفواصل مختلفة مع اتفاق المعنى [1] .

وقد يقع المخبر به على أحوال مختلفة كقوله تعالى فى خلق آدم: ﴿ .. خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ .. ﴾ – ثم قال: من حمأ مسنون وقال: من طين لازب، وقال: من صلصال كالفخار فهذه الألفاظ مختلفة وهى فى أحوال مختلفة لأن الصلصال غير الحمأ، والحمأ غير التراب ولكن مرجعها كلها إلى جوهر واحد وهو التراب ومن التراب تدرجت هذه الأحوال [2] وكله متفق فى المعنى أى خلقه من تراب ثم جعله طينا ثم حمأ مسنونا ثم صلصالا وانظر إلى الألفاظ التى يوهم ظاهرها أن فيها اختلافا مثل قوله تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ الصافات (٢٤) .

وقوله: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ وقوله: ﴿ .. وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا

(١) إعجاز القرآن للباقلانى ١٩٠ .

(٢) البرهان ٢ / ٥٥، الكشاف ٤ / ٤٥ .

جَانٌّ ﴾ وقوله: ﴿ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ .. ﴾ فهل هناك سؤال أو لا ؟ .

تحتمل الآية الأولى السؤال عن التوحيد وتصديق الرسل، والثانية كذلك .

أما الثالثة التى ورد فيها (ولا يسأل) ففى القيامة مواقف كثيرة .

فموضع يسأل فيه الإنسان وموضع آخر يرحم ويلطف به ولا يسأل .

وموضع آخر يعنف ويوبخ، وهم الكفار . وهذا يوم طويل وفيه مواطن يسألون فى موطن ولا يسألون فى آخر . وفى موطن لا ينطقون . ولا يؤذن لهم فيعتذرون [1] .

قال تعالى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴾ أى ينطقون فى وقت ولا ينطقون فى وقت. أو جعل كلامهم كلا نطق لأنه لا ينفع ولا يسمع .

وانظر إلى فواتح السور وخواتيمها . سورة المؤمنون مثلا تبدأ بقوله: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾، وختمها بقوله: ﴿ .. إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ فأى بلاغة وفصاحة مثل ذلك [2] .

وتأمل قوله: ﴿ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ﴾ (٩ سورة القارعة) قال ابن خالوية: وإنما سميت جهنم أما الكافر إذا كان مصيره إليها ومأواه . وكل شئ جمع شيئا وضمه إليه فهو أم له . من ذلك : أم الرأس : مجتمع الدماغ ، وأم القرى :

(١) البرهان ٢ / ٥٥، الكشاف ٤ / ٤٨، ٤ / ٢٠٥، كشف المعانى ٢٨٧ .

(٢) البرهان ١ / ١٨٦ .

مكة ، وأم السماء : المجرّة ، وأم الكتاب : اللوح المحفوظ ، وأم القرآن : فاتحة الكتاب [1] .

ومن الدقائق اللغوية فى القرآن المعجز الفرق بين الحمد والشكر . وعند عامة الناس هما بمعنى واحد . وبينهما فصل ؛ لأن الشكر لا يكون إلا مكافأة كأن رجلا أحسن إليك فتقول : شكرت له فعله . ولا تقول : حمدت له . والحمد هو الثناء على الرجل بشجاعة أو سخاء . فالشكر لا يكون إلا عن تقديم إحسان ، والحمد يكون عن ذلك وغيره . فالحمد أعم من الشكر . وهو ثناء على الممدوح بصفته من غير سبق إحسان . والشكر ثناء على المشكور بما قدم من إحسان [2] .

❁❁❁

(١) إعراب ثلاثين سورة ١٧٥ .

(٢) المفردات ١٣١ ، اللسان حمد ، بصائر ذوى التمييز ٢/٤٩٩. القرطبى ١/١٨١ .

الزيادة فى بنية الكلمة

إذا نقل اللفظ من وزن إلى وزن أعلى منه فلابد أن يتضمن معنى أكثر مما تضمنه أولا ؛ لأن الألفاظ هى أوعيه للمعانى . فإذا زاد اللفظ ازداد المعنى انظر إلى قوله تعالى: ﴿ .. فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ .

أى: قادر متمكن فى القدرة، وهذا أبلغ من قادر وانظر إلى قوله: " واصطبر عليها " فهو أبلغ من الأمر بالصبر، أى داوم على الصبر وتحمل فى سبيل ذلك المشقات .

وانظر إلى قوله: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا .. ﴾ فاطر (٣٧) .

فهو أبلغ من يصرخون، والماضى المجرد (صرخ) وهذه الطاء الزائدة ما هى إلا تصوير لثقل الصراخ المرير من ألم العذاب فهو اصطراخ عظيم وليس صراخا، لا تبقى معه قوة لدى هذا المخلوق إلا استنفرها من أعماقه [1] .

وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾ الشعراء (٩٤) .

ولم يقل: وكبوا والكبكبة هى تكرير الكب فهو إذا ألقى فى جهنم ينكب مرة بعد مرة، ومنه: ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ .. ﴾ .

وتأمل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا .. ﴾ [2]

أصله: يئسوا فزاد السين والتاء للمبالغة، نحو (فاستعصم) والاستعصام مبالغة

(١) الجمال فى القرآن الكريم د/ الحمص ٥٢ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٦ .

يدل على الامتناع الشديد والتحفظ القوى كأنه فى عصمة ويجتهد فى الاستزادة ونحو ذلك استمسك [1] .

وانظر إلى دقة النظم وإعجازه حينما وصل إخـوة يوسـف إلى ذروة اليأس واشتد قنوطهم خلصوا أى اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم، ونجيا أى يناجى بعضهم بعضا وهم فى حاجة إلى تشاور ماذا يقولون لأبيهم فى شأن أخيهم هل تجد ألفاظا تؤدى هذه المعانى الراقية تنزيل من العزيز الحكيم .

وانظر إلى قوله تعالى: " تختانون أنفسكم " وهو من الخيانة ففيه زيادة وشدة مثل الاكتساب من الكسب [2] .

واشهد الجمال فى قوله: ﴿ .. وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ .. ﴾ النساء.

فقوله: استعف أبلغ من (عف) وكأنه يطلب زيادة العفة من نفسه، وليس (استعف) هنا بمعنى الطلب بوزن استفعل مثل استغفر، لأن استفعل الطلبية معدية، واستعف هنا لازم وهو مما جاء فيه فعل واستفعل بمعنى واحد [3] .

وتأمل قوله:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ .. ﴾ إبراهيم .

(1) الكشاف ٢ / ٣١٨ .
(2) الكشاف ١ / ٣٣٨ .
(3) الكشاف ١ / ٥٠٢ .

تأذن أى أذن، ولابد فى تأذّن من زيادة معنى ليس فى (أذن) كأنه قيل: وإذ أذن ربكم إيذانا بليغا تنتفى عنده الشكوك وتزاح الشبه [1] .

واسمع قوله تعالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا .. ﴾ فصلت .

والصّر بتشديد الصاد مكسورة هو شدة البرد والصياح، وبفتح الصاد: الشدة من الكرب والحر وتقطيب الوجه .

وهذا مقطع واحد، وأضيف إليه مقطع آخر فصار صرصر، وريح صِرّ وصرصر شديدة الصوت والبرد . فالصرصر هو العاصفة التى تصوت فى هبوبها، والباردة التى تحرق بشدة بردها وتأمل تركيب اللفظ: صرصر أى شدة بعد شدة وكرب بعد كرب وتكرير لبناء الصر [2] .

وانظر إلى قوله: ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ .. ﴾ .

والصيب هو المطر الذى يصوب أى ينزل ويقع مأخوذ من الصوب فهو نزول له وقع وتأثير، وبنى على صيغة (فيعل) مثل (سيد) وهو من الصيغ الدالة على الثبوت ونكر لأنه أر يد به نوع من المطر شديد هائل وهو أبلغ من (صائب) اسم فاعل [3] .

(واستبقا الباب) .

تأمل هذا التركيب وهو من اختصار القرآن المعجز الذى تجتمع فيه المعانى بجملة واحدة تفسر بكلمات ومشاهد وصور حيه كأنك تراها الآن ، انظر إلى يوسف لما رأى برهان ربه هرب منها وهى تشده لترده إلى نفسها

(1) الكشاف ٢ / ٣٦٨ .
(2) الكشاف ٣ / ٤٤٩ .
(3) الكشاف ١ / ٢١٤ .

وهو ليهرب منها فأدركته قبل أن يخرج وقدت قميصه من خلفه فتخرق القميص إلى أن وجدا سيدها لدى الباب . أى لغة تعطى هذه المعانى بكلمتين ؟.

۞۞۞

الاحتراس فى القرآن الكريم

وهو أن يكون الكلام محتملا لشئ بعيد فيؤتى بما يدفع ذلك الاحتمال كقوله تعالى: ﴿ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ .. ﴾ القصص (٣٢) .

فاحترس سبحانه بقوله: (من غير سوء) لرفع احتمال أن يدخل فى ذلك مرض كالبرص والبهق [1] .

وقوله تعالى: ﴿ .. أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ .. ﴾ المائدة (٥٤) .

فلو اقتصر على وصفهم بالذلة لتوهم أنه ضعف منهم ولكن لما قال: أعزة على الكافرين علم أن ذلك تواضع منهم [2] .

ومنه ﴿ .. أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. ﴾ ومن أجمل الاحتراس الذى وقع فى القرآن الكريم قوله تعالى مخاطبا بينه ﷺ ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ .. ﴾ القصص (٤٤) .

وقال حكاية عن موسى ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ .. ﴾ والمكان المشار إليه واحد فى الحالتين .

فسماه مع الرسول ﷺ: جانب الغربي، وسماه مع موسى عليه السلام: جانب الطور الأيمن فلماذا ؟

(١) البرهان ٣ / ٦٦ .

(٢) البرهان ٣ / ٦٥ .

لأن الله حين نفى عن رسوله أن يكون بالمكان الذى قضى لموسى فيه الأمر عرف المكان بالغربى، ولم يقل له " وما كنت بجانب الطور الأيمن " أدبا مع الرسول أن ينفى عنه كونه بالجانب الأيمن، أو يسلب منه لفظا مشتقا من اليمن وهو البركة ولما أخبر عن موسى ذكر الجانب الأيمن تشريفا له فراعى القرآن فى المقامين حسن الأدب تعليما للأمة (1) .

(1) البرهان ٣ / ٦٦ .

عطف النعوت فى القرآن الكريم

قلما تجد فى كتاب الله تعالى أسماءه الحسنى معطوفة بالواو نحو الرحمن الرحيم، والعزيز الحكيم، الملك القدوس، السميع البصير، لأنها أسماء له سبحانه والمسمى بها واحد فهى ليست صفات متغايرة، ولكنها أسماء مترادفة مثل: الأسد والليث وغير ذلك .

فأما قوله: هو الأول والآخر والظاهر والباطن، فلأنها ألفاظ متضادة فى المعانى، ولذا دخلت الواو لعدم توهم اجتماع الأضداد ؛ لأن الشئ لا يكون ظاهرا وباطنا من وجه واحد، ولكن من وجهن مختلفين فكان العطف بالواو أحسن من تركها، وكلما كان التغاير أظهر كان العطف أحسن .

وأما قوله تعالى: ﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ .. ﴾ .

فقد جاءت الواو بين غافر الذنب وقابل التوب لإفادة الجمع للمذنب والتائب بين رحمتين فكأنه قال: جامع المغفرة والقبول فكان فى عطف أحدهما على الأخر ما يدل على أنهما صفتان وفعلان متغايران، ويريد الله أن ينبه العباد على أنه يفعل هذا ويفعل هذا ليرجو رحمته .

ثم قال: شديد العقاب بغير واو ؛ لأن الشدة راجعة إلى معنى القوة والقدرة وهو معنى خارج عن صفات الفعل فصار بمنزلة العزيز العليم فى أول السورة .

وكذا قوله: ذى الطول فالمراد به ذاته فترك العطف لاتحاد المعنى وهو اجتماع هذين الأمرين فى ذاته سبحانه وأنه حال كونه شديد العقاب فهو ذو الطول بخلاف الأول والآخر فإنهما لا يجتمعان فعطف بالواو.

وتأمل قوله: غافر وقابل بصيغة اسم الفاعل التى تشعر بحدوث المغفرة والقبول بخلاف شديد العقاب بصيغة الصفة المشبهة التى تشعر بالدوام والاستمرار فتدل على القوة [1] .

❁❁❁

(١) البرهان ٣ / ٤٧٥، الكشاف ٣ / ٤١٣ نتائج الفكر ٢٣٩ .

من أسرار النظم القرآني
آيات وعبر

تنوع الأسلوب وعود الضمائر

قد يعبر القرآن الكريم بلفظين مختلفين لمعنى واحد وذلك لحكمة يقتضيها المقام . فانظر إلى قوله تعالى: ﴿ .. وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ .. ﴾ فصلت (٥٠) وقوله: ﴿ .. وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي .. ﴾ الكهف (٣٦) .

تجد فى لفظ الرد من الكراهية للنفوس ما ليس فى لفظ الرجوع فلما كان آية صاحب الكهف وصف جنته كانت مفارقته لها أشد على النفس من مفارقة صاحب آية السجدة ؛ لأنه لم يبالغ فى وصف ما كان فيه كما بالغ صاحب آية الكهف [1] فناسب ذلك لفظ الرد هنا ولفظ الرجوع فى سورة السجدة .

وقد يأتى الفعل فى غير موضعه الذى اعتاده الناس مثل فعل (بشر) وأبشر بمعنى فرح ويأتى فى الخير ومنه البشرى والبشارة والاستبشار والبشر والمبشِّر وكلها تدور حول الخير والسعادة والفرح ولكن تأمل قوله تعالى: ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

ولكن لما بشر هؤلاء بالجنة قال: بشر هؤلاء بالعذاب من إطلاق اسم الضدين على الآخر، مثل: "ومكروا ومكر الله " وقوله: وجزاء سيئة سيئة مثلها، وأيضا فيه توبيخ وتحقير لهم كأنهم حين يسمعون (فبشرهم) يأملون خيرا فحين يسمعون العذاب يصيبهم الخسران والألم والحسرة [2] ويقصد

(١) كشف المعاني ٢٤٠ .

(٢) البرهان ٢ / ٢٨٣ .

بذلك الاستهزاء الزائد فى غيظ المستهزأ به وتألمه[1]. ومن ذلك قوله: ﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (٤٩) سورة الدخان وهو لأبى جهل تحقيرا له وتهكما ومنه : " ﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٥٦) سورة الواقعة وقوله: ﴿ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴾ (٩٣) سورة الواقعة، والنزل لغة هو الذى يقدم للنازل ضيفا تكرمة له قبل حضور الضيافة . وهذا استهزاء بهم أى ذلك ما يستحقونه من الضيافة[2].

وأحيانا يعبر القرآن بالفعل الماضى ثم يذكر المضارع منه فى آية أخرى والموضع واحد .

فعندما ترى قوله تعالى: ﴿ .. كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ .. ﴾ العنكبوت (١٩) .

وقوله: ﴿ .. كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ الأعراف (٢٩) .

فالفعل بدأ ثلاثى، ولكن قال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ .. ﴾ العنكبوت (١٩) .

فجاء بالفعل يبدىء من أبدأ الرباعى وذلك مراعاة للتناسب مع قوله: (يعيده) من أعاد الرباعى[3] .

ونجد أن القرآن يعبر بالفعل المضارع فى المواضع التى تدل على استحضار الصورة وتصويرها كأنها مشاهدة ففى قوله تعالى: ﴿ .. فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ .

(١) الكشاف ١ / ٢٥٤ .
(٢) البرهان ٢ / ٢٣٢ .
(٣) البرهان ١ / ٦٦ .

فكان القياس: (وفريقا قتلتم) فجاء بالمضارع (تقتلون) دون الماضى لأنه يدل على استحضار الجريمة وهى القتل فى ذهن السامع تصويرا للحال ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. ﴾ فعبر بأنزل فى الماضى ثم قال: تصبح، فعدل عن الماضى إلى المضارع لتصوير اخضرار الأرض فى النفس واستحضارا للصورة[1] .

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ .. وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ .. ﴾ النحل (١٢٤)

فجاء بالمضارع (يحكم) وهو فى يوم القيامة قصدا لإحضار صورة ذلك اليوم فى الذهن حتى كأنه يشاهد الآن .

ومنه قوله: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا .. ﴾ قوله (فتثير) مضارع قصدا لإحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة من أثارة السحاب، ومنه قوله تعالى: ﴿ .. وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ .. ﴾ ولم يقل: وقلبناهم قصدا لاستحضار ذلك المشهد داخل الكهف حين قلبهم يمينا وشمالا[2] .

وأى جمال وحسن فى تنويع الخطاب فى قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يونس .

كيف نوع الخطاب مثنى أولا: تبوءا، ثم جمع واجعلوا، وأقيموا، ثم أفرد فقال: وبشر المؤمنين ؛ لأن التثنية أولا لموسى وهارون، وذلك مما يفوض إلى

(١) الكشاف ١ / ٢٩٥، ١ / ٦٣٣ .
(٢) المغنى ٦٥٣ .

الأنبياء أن يختارا بمصر بيوتا للعبادة ثم سيق الخطاب عاما لهما ولقومها باتخاذ المساجد للصلاة فيها وذلك واجب على الجميع وليس الأنبياء فقط، ثم أفرد فقال: وبشر لأنه خص موسى بذلك تعظيما للبشارة ولموسى عليه السلام (١).

وقد تسأل لم قال تعالى: ﴿ .. بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ .. ﴾ ردا على قولهم: (يد الله مغلولة) فلم ثنى اليد فى (يداه) وأفردها فى (يد الله)؛ ليكون الرد عليهم أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له سبحانه ونفى البخل عنه لأن غاية ما يبذله السخى بماله أن يعطيه بيديه جميعا (٢).

وترى الجمال كله حين يؤثر القرآن حرفا على حرف أو لفظا على لفظ حيث لو وضع هذا فى مكان ذاك لما استقام النظم وحدث الإعجاز ففى قوله تعالى: " نساؤكم حرث لكم " ولم يقل متاع لكم مثلا لأن الغرض الأصلى فى إتيان النساء طلب النسل لا محض الشهوة، وكلمة الحرث هى التى توحى بالنسل والنماء فناسب ذلك (٣).

وحينما تقرأ قوله: ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ .. ﴾ التوبة (٦٧).

وقوله: ﴿ .. بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ .. ﴾ فى شأن المؤمنين؛ لأن المنافقين ليسوا متناصرين على دين وشريعة ظاهرة فكان بعضهم يهودا وبعضهم مشركين فقال: من بعض، أى فى الكفر والنفاق.

(١) الكشاف ٢ / ٢٢٧.
(٢) الكشاف ١ / ٢٩، البرهان ٢ / ٣٠٨.
(٣) المغنى ٣٧٩.

أما المؤمنون فهم متناصرون على دين الإسلام والشريعة الواضحة فقال: أولياء بعض فى النصرة والاجتماع على دين واحد (١).

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ .. ﴾ ق (١٨).

لماذا لم يقل: ما يقول من لفظ؟ أو ما يلفظ من لفظ والجواب (٢) أن الأحسن ذكر القول بعد اللفظ؛ لأن القول أخص من اللفظ لاختصاصه بالمستعمل واللفظ يشمل المهمل الذى لا معنى له ومجئ الخاص بعد العام كثير فى اللغة نحو: " آمنا برب العالمين رب موسى وهارون " ونحو قوله: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ .. ﴾ البقرة (٩٨)، فإن جبريل وميكال من الملائكة فلماذا خصهما بالذكر ولم قدم جبريل على ميكال؟ والجواب أن الله خصهما بالحياة، فجبريل بالوحى، وهو حياة القلوب وميكال بالرزق وهو حياة الأبدان، ولذا صرحت اليهود بعداوتهما وهذا سبب نزول الآية. وحياة القلوب أعظم من حياة الأبدان ولذا قدم جبريل على ميكال (٣).

وحين تقرأ قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا .. ﴾ (٤٢) الزمر.

وتسأل: لم جاء أولا بـ (حين) مع الموت، و (فى) مع منامها؟ لأن الموت هو الوفاة ولا يكون الشئ ظرفا لنفسه فلا يؤتى بـ (فى) الظرفية فلا

(١) كشف المعانى ١٩٩.
(٢) البرهان ٢ / ٤٥٧.
(٣) البرهان ٢ / ٤٦٨.

يقال: يتوفى النفس فى موتها . أما النوم فإنه يصح جعله ظرفا للمـوت، أى يموت فى نومه [1] .

وسبحان من وضع الأسرار فى نظمه المعجز ، والشئ العجيب حينمـا أقـرأ القرآن أجد تجانسا لطيفا بين ألفاظ متجاورة توحى بنظم بديع فى سمعها فاقرأ قوله: ﴿.. اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم ..﴾ التجانس بـين الأرض وأرضيتم، وأيضا بين: "وهم ينهون عنه وينأون عنه " الجمـال فى اللفظـين ينهون وينأون والنظم البديع فى المشاكله بينهما، وفرق فى الهاء والهمزة فقط وكلاهما حرف حلق، والمعنى مختلف .

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿.. وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ..﴾ المجانسة بين أسفى ويوسف شئ بديع حقا وانظر إلى قوله: ﴿.. وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ وانظر إلى قوله: يحسبون أنهم يحسنون [2] .

ولـذا عرفنا سر التعبير بقوله تعالى: ﴿.. تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ (مـريم) أى تهزهم وعبر بالأز ؛ لأن مخرج الهمزة أقوى من مخرج الهاء، فجاء لفـظ (أزّ) أقوى من (هز) يعبر عن التهييج وشدة الإزعاج أى تغريهم علـى المعاصـى والوسوسة [3] . وأيضاً سر التعبير بقولـه ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ الرحمن أى فوارتان، والنضخ أكثر من النضح وأقوى ؛ لأن مخرج الخاء أقوى

(١) كشف المعانى ٣/٦ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣٣٨ .

(٣) الكشاف ٢ / ٥٢٤ .

من الحاء [1] فالنضخ فوران الماء بشدة ، وأجمل من ذلك قوله تعـالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا..﴾ لم عبر بـ (بكة) بدلا من مكة وهما لغتان ؛ لأن بكة مشتق من البك وهو الازدحـام . ومنـه قـول العرب: تباك القوم أى ازدحموا، وذلك لازدحام الناس فى موضع طـوافهم ، والبك أيضا: دك العنق وسميت بذلك لأنها تدق أعناق الجبابرة إذا ألحـدوا فيها بظلم .

وقيل هما متغايران فبكة موضع المسجد، ومكة البلد بأسرها [2] .

وانظر إلى عجيب القرآن فى قوله: فبشرناها بإسـحاق ومـن وراء إسحاق يعقوب ولم يقل: إسرائيل وهو اسمه ؛ لأن هبة يعقوب جاءت عقب هبـة إسحاق فهى هبة تعقب هبه ولذا سمى يعقوب، وبشرى عقب بـشرى فـاللفظ مأخوذ من العقب والتعقيب فهناك مشاكله بين لفظ يعقوب والبشرى التى جاءت عقب بشرى أخرى [3] .

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿.. وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ ..﴾ يحتمـل أمرين أى ترغبون فى نكاحهن لمالهن، أو ترغبـون عـن نكـاحهن لقلـة مالهن ؛ لأن العرب تقول: رغبت فى الشئ إذا أحببتـه وحرصـت عليـه، ورغبت عن الشئ إذا كرهته وزهدت فيه . فلما ركب الكلام تركيبا حذف منه حرف الجر واحتمل التأويلين معاً .

(١) الكشاف ٤ / ٥٠ .

(٢) المفردات للراغب ٥٧ .

(٣) البرهان ١ / ١٦١ .

وتأمل عود الضمير فى قوله تعالى: ﴿ .. إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ .. ﴾ فاطر ١٠ ، يحتمل عود الضمير فى (يرفعه) على العمل . أى أن الكلم الطيب يرفع العمل الصالح، ويحتمل عوده على الكلم أى أن العمل الصالح هو الذى يرفع الكلم الطيب .

وكلاهما صحيح ؛ لأن الإيمان فعل وعمل ونيه لا يصح بعضها إلا ببعض [(١)]

وتأمل كلمة (أمّة) فى القرآن بمعنى الجماعة ﴿ .. وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً .. ﴾ القصص وبمعنى الرجل الجامع للخير فى قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً .. ﴾ النحل ١٢٠ وبمعنى الدين ﴿ .. إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ .. ﴾ الزخرف ٢٢ وبمعنى الزمان فى قوله: ﴿ .. وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. ﴾ يوسف ٤٥ .

❀❀❀

(١) البرهان ٢ / ٢١١ .

الحكمة في مد التاء وقبضها

ورد في النظم القرآني كلمات ختمت بتاء أحيانا مقبوضة مثل: رحمة، ونعمة، وكلمة، وسنَّة، وفطرة، وجنة، وامرأة . وأحيانا بتاء ممدودة مبسوطة مثل: نعمت، وكلمت، وسنت، وفطرت، وجنت، وامرأت. فهل هناك سر في ذلك ؟

بالبحث في هذا الأمر تبيّن أن هذه الأسماء لها اعتباران: أحدهما من حيث هي أسماء وصفات وهذا تقبض منه التاء، والثاني حيث يكون مقتضاها فعلا وأثرا ظاهرا في الوجود فهذا تمد فيه التاء وتفتح .

ومن ذلك " الرحمة " مدت في القرآن في سبعة مواضع للعلة المذكورة مثل قوله: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ ﴾ [(١)]، والأثر هو الفعل .

ومثل: ﴿ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ ﴾ [(٢)]، والرحمة هنا هي الفعل وآثاره . ومثل: قوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ﴾ [(٣)] .

ومن ذلك (النعمة) بالتاء المقبوضة إلا في أحد عشر موضعاً مدت فيها التاء (نعمت) كما في قوله تعالى ﴿ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ [(٤)]، حيث إن النعمة هنا حاصلة بالفعل في الوجود، وكذلك في آل عمران آية (١٠٣)، والمائدة آية (١١)، وإبراهيم آية (٢٨-٣٤) نحو قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّوا

(١) من الآية (٥٠) من سورة الروم .

(٢) من الآية (٢١٨) من سورة البقرة .

(٣) من الآية (٣٢) من سورة الزخرف .

(٤) من الآية (٢٣١) من سورة البقرة .

نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ (١)، فهذه نعمة متصلة واقعة بالفعل في الوجود بدليل قوله: ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (٢)، وهذا خلاف التي في سورة النحل: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾ (٣) كتبت بتاء مقبوضة لأنها بمعنى الاسم أي مجرد النعمة بدليل قوله بعدها: ﴿ إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٤)، فهي نعمة وصلت من الرب ختمها باسمه ﷻ. وختم الأولى باسم الإنسان.

ومن ذلك (الكلمة) بتاء مقبوضة إلا في قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى ﴾ (٥)، لأن لها نهاية تظهر في الوجود بالفعل فمدت فيها التاء.

ومن ذلك (السنّة) بتاء مقبوضة إلا في خمسة مواضع مدت فيها التاء (سنت) حيث تكون بمعني الهلاك والانتقام الذي في الوجود. مثل قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينِ ﴾ (٦)، وقوله تعالى: ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّتَ الأَوَّلِينَ ﴾ (٧) بمعنى الهلاك بدليل ماقبلها: ﴿ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ (٨)، ومثل قوله تعالى: ﴿ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللهِ ﴾ (٩)، أما

(١) من الآية (٣٤) من سورة إبراهيم.
(٢) من الآية (٣٤) من سورة إبراهيم.
(٣) من الآية (١٨) من سورة النحل.
(٤) من الآية (١٨) من سورة النحل.
(٥) من الآية (١٣٧) من سورة الأعراف.
(٦) من الآية (٣٨) من سورة الأنفال.
(٧) من الآية (٤٣) من سورة فاطر.
(٨) من الآية (٤٣) من سورة فاطر.
(٩) من الآية (٨٥) من سورة غافر.

إذا كانت السنة بمعنى الطريقة والشريعة فهي بمعنى الاسم تقبض تاؤها. كما في قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ﴾ (١) أي حكم الله وشرعه ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللهِ ﴾ (٢) لأنه فطر الناس عليها فهي أثر ظاهر في الوجود.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ ﴾ (٣) مد فيها التاء لأنه بمعنى الفعل فهو خبر عن موسى وهو موجود حاضر في قصر فرعون، وهذا بخلاف قوله تعالى: ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ (٤) فإنه هنا بمعنى الاسم فهو غير حاضر.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ ﴾ (٥) حيث مدّ فيها التاء في موضعين من السورة ؛ لأن معناها الفعل أي لا تتناجوا بأن تعصوا الرسول ﷺ.

ومن ذلك (الجنة) مدت في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ (٦) لكونها بمعنى فعل التنعم بالنعيم بدليل اقترانها بالروح والريحان وهما من الجنة.

(١) من الآية (٢٣) من سورة الفتح.
(٢) من الآية (٣٠) من سورة الروم.
(٣) من الآية (٩) من سورة القصص.
(٤) من الآية (٧٤) من سورة الفرقان.
(٥) من الآية (٨) من سورة المجادلة.
(٦) من الآية (٨٩) من سورة الواقعة.

وأما قوله تعالى: ﴿ مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴾ (١)، وقوله تعالى ﴿ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ (٢) فهذا بمعنى الاسم دون حصول الفعل . فكل ما كان بمعنى الاسم لم تمدّ تاؤه .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ ﴾ (٣) مدت فيها التاء تنبيها على معنى الولادة والحدوث .

ومن ذلك (امرأة) قال: (امرأت عمران)، (امرأت فرعون)، (امرأت نوح) (امرأت لوط)، (امرأت العزيز) وهن خمس من النساء كلها بتاء ممدودة تنبيها على فعل الصحبة والمواصلة والمخالطة في الوجود وواحدة منهن واصلت بعلها ظاهرا وباطنا وهي امرأت عمران، فجعل الله لها ذرية طيبة وفضلها على العالمين، وواحدة منهن انفصلت عن بعلها بباطنها وهي امرأت فرعون خوفا منه فنجاها وأكرمها، واثنتان منهن كفرتا بالله فأهلكهما وانفصلتا عن أزواجهما كفرا بالله، وواحدة منهن اتبعت شهوة نفسها وهي امرأت العزيز فهذه كلها عبر وقعت بالفعل في الوجود في شأن كل امرأة منهن فلذلك مدت التاء فيهن (٤) .

❀❀❀

(١) من الآية (٨٥) من سورة الشعراء.

(٢) من الآية (٣٨) من سورة المعا رج.

(٣) من الآية (١٢) من سورة التحريم .

(٤) انظر البرهان ١/٤١٠.

التكرار في النظم القرآني

قد يبدو للقارئ في كتاب الله أن هناك تكريرا لكلمة أو حرف في آية واحدة، أو في آيات متباعدة في سور مختلفة والقصة فيها واحدة، أو المعنى متشابه فليعلم أن لكل مكرر فائدة وحكمة قد تخفي علينا أو قد تظهر .

وما علينا إلا البحث في أسرار التتريل لتعقب المعاني الواردة، والفائدة العظمى من التكرار: التقرير . وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر .

فإذا نظرت إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (١) ففيه تكرير هل له من فائدة ؟ تأمل قوله (العسر) جاءت مكررة معرفة بالألف واللام، و (يسرا) جاءت مكررة نكرة . والغرض من ذلك بعث الأمل في النفس الإنسانية بصورة متمثلة في تصدير الآية بـ (إن) وصورة التلازم الذى تدل عليه (مع) فالعسر معه اليسر لا ينفك عنه وعلى المرء الذي أصابه العسر أن يستبشر دائماً بالخير واليسر .

ومن الوجهة النحوية عند العرب أن العسر كرر وهو معرف بالألف واللام، والمعرفة إذا كررت فإن الثاني هو الأول فتقول: قبضت الدرهم وأنفقت الدرهم فالدرهم الثاني هو الأول، و(يسرا) كررت وهي نكرة والنكرة إذا كررت فإن الثاني غير الأول . فنحن في السورة أمام عسر واحد ويسرين، أي عسر واحد يقابله يسران ولن يغلب عسر يسرين كما قال الرسول ﷺ (٢).

(١) الآية (٥ –٦) من سورة الشرح.

(٢) الكشاف ٤/٢٦٧، كشف المعاني صـ٣٧٧ ، الجمال في القرآن الكريم للدكتور / عبد الجواد المحص صـ ٤٢.

وقد يذكر الحرف بين جملتين مكررتين لمعنى زائد مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ (1) ذكر (ثم) في المكرر دلالة على أن الإنذار الثاني أبلغ وأشد من الأول، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ (2) فتكرار الجملة لزيادة التهويل والردع والإنذار عليهم، أي أن يوم الدين لا يدركه أحد في الهول والشدة وكيفما تصورته فهو فوق ذلك وعلى أضعافه (3).

ونحو قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (4)﴾، وفائدته: أن يجددوا عند سماع كل نبأ من أنباء الأولين ذكراً واتعاظاً وأن يستأنفوا التنبه والاستيقاظ لئلا يغلبهم السهو، ولا تستولى عليهم الغفلة، وهذا نحو ماجاء في سورة المرسلات في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ (5)﴾عند كل آية أوردها، ومنه التكرار في مقام التعظيم والتهويل نحو: (الحاقة ما الحاقة)، (القارعة ما القارعة)،(وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين)، و(أصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة)، ونحو ماجاءفي سورة الرحمن من تكرر قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة . لأن كل واحدة منها متعلقة بما قبلها فكلما ذكر الله تعالى فصلاً من فصول النعم

(1) الآية (3-4) من سورة التكاثر .
(2) الآية (17-18) من سورة الانفطار .
(3) الكشاف 229/4، البرهان 17/3 .
(4) الآية (17) من سورة القمر .
(5) الآية (15) من سورة المرسلات .

طلب إقرارهم والشكر لله وهي أنواع مختلفة وصور شتى. وكما قال القرطبي: التكرير طرداً للغفلة وتأكيدا للحجة.(1)

وإن قيل: إذا كان المقام في سورة الرحمن لتعداد النعم والشكر عليها . فما معنى قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ (2)﴾ وأي نعمة هنا وإنما هو وعيد وهل يعد الوعيد من النعم ؟ والجواب عن ذلك: أن نعم الله هي ما حذر من عقوبته وما بشر به من ثوابه فالمعاصي يحذرونها، والطاعات يرغبون فيها ويحرصون عليها، ومعرفة الشيء تتحقق بمعرفة ضده، والوعد والوعيد متقاربان في موضع النعم، فلذا جعل التحذير والإنذار نعمة تستحق الشكر عليها . (3)

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (4)﴾ قال الزمخشري: "هذا إيذان بوجوب الحمد عند هلاك الظلمة وأنه من أجل النعم" . (5) ، وكذلك تكرير الأنباء لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في كل حين وأوان .

وقد تكرر الكلمة في القرآن مقرونة بحرف يخالف الآخر في مثل قوله تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (6)﴾، وقوله تعالى ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا (7)﴾،

(1) القرطبي 17 /160 .
(2) الآية (35) من سورة الرحمن .
(3) البرهان 3 /18 .
(4) الآية (45) من سورة الأنعام .
(5) الكشاف 2 /18 .
(6) من الآية (39) من سورة طه .
(7) من الآية (37) من سورة هود .

وقوله تعالى: ﴿ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ (١)، وقوله تعالى: ﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا ﴾ (٢)، فقال في الأولى (على عيني) بحرف (على)؛ لأنها وردت في إظهار أمر كان خفياً، فإن الأطفال إذ ذاك ومنهم موسى كانوا يربون سراً فلما أراد الله أن يُصنع موسى ويربى على حال أمن، وأمر ظاهر لاتحت خوف واستتار دخلت على في اللفظ تنبيهاً على المعنى لما فيها من معنى الاستعلاء، كأنه تعالى يقول: ولتصنع على أمن لاتحت خوف، وذكر العين لتضمنها معنى الرعاية . أما الآيات الأخرى فإنه يريد الرعاية والحفظ فقط ولا يريد إظهار شيء مستتر فلا يحتاج لذكر (على) . (٣)

والجمال في ذلك أنه في قصة موسى عليه السلام أفرد وقال: عيني وفي الباقي جمع وقال: بأعيننا، وهو سر لطيف يقصد إظهار الاختصاص الذي خص به موسى في قوله تعالى ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤)﴾ فاقتضى الاختصاص اختصاصاً آخر في قوله تعالى: ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٥) ﴾. (٦)

وقد يكرر الفظ في القرآن تنبيهاً على عظمه وقوة شأنه واعتدال الحياة به كما كرر الميزان في سورة الرحمن قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا

(١) من الآية (٤٨) من سورة الطور .
(٢) الآية (١٤) من سورة القمر.
(٣) البرهان ٢/٢٨٧، نتائج الفكر صـ٢٩٥ .
(٤) الآية (٤١) من سورة طه .
(٥) من الآية(٣٩) من سورة طه .
(٦) البرهان ٢/٨٧ .

الْمِيزَانَ (١) ﴾ وذلك للتشديد عليه، والتوصية به، وتقوية الأمر باستعماله والحث عليه، لأنه يوزن به الأشياء وتعرف مقاديرها ويتعلق به أحكام عباده. (٢)

ولذا طلب إقامة الوزن بالقسط وهو العدل، وينبه إلى أن القسط بفتح القاف هو الجور والظلم بخلاف القسط بكسر القاف وهو العدل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (٣) ﴾ أي الطاغون وأما أقسط أي عدل ومنه المقسط قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤) ﴾.

وتارة يكرر الفعل بصيغ مختلفة حسب الإسناد إلى الضمائر ففي قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٥) ﴾ ثم قال: ﴿فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٦) ﴾ ثم قال: ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا .....﴾ (٧) ألا تراه في **الأول**: أسند الفعل إلى ضميره خاصة (فأردت) لأنه عيب نسبه إلى نفسه وهذا من باب الأدب مع الله فتأدب فنسب إعابة السفينة لنفسه كما قال: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ ﴾ (٨) واقتصر عليه ولم ينسب

(١) الآيات (٧-٨-٩) من سورة الرحمن .
(٢) الكشاف ٤/٤٢ .
(٣) الآية (١٥) من سورة الجن .
(٤) من الآية (٨) من سورة الممتحنة .
(٥) الآية (٧٩) من سورة الكهف .
(٦) الآية (٨١) من سورة الكهف .
(٧) من الآية (٨٢) من سورة الكهف .
(٨) من الآية (٢٦) من سورة آل عمران .

الشر له تأدباً وإن كان بيده الخير والشر والنفع والضر، وكما قال إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (١) فأسند المرض إلى نفسه .

وفي الثانية: قال: (فأردنا) فأسند الفعل إلى ضمير الجماعة والمعظم نفسه لأنه تضمن سلامة الأبوين من الكفر كأنه قال: أردت أنا القتل وأراد الله سلامتهما من الكفر، وإبدالهما خيراً منه . فجعل الإرادة مشتركة بينهما .

وفي الثالثة: قال: (فأراد ربك) فهو خير محض وهو أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما فنسبه لله وحده ولأن ذلك كان في زمن طويل غيب من الغيوب فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى، فانظر كيف تغايرت هذه الأساليب ولم تأت على نمط واحد مكرر ينبو عنها السمع فسبحان اللطيف الخبير .(٢)

وإن قلت لم قيل حتى إذا ركبا في السفينة خرقها بغير فاء، وقال: حتى إذا لقيا غلاما فقتله بالفاء ؟

الجواب: أنه جعل خرق السفينة جزاء للشرط، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه، وجواب الشرط: قال أقتلت . ولم خالف بينهما ولم يجعل العكس ؟

الجواب: أن خرق السفينة لم يتعقب الركوب . أما القتل فقد تعقب لقاء الغلام . فلذا أتى بالفاء للتعقيب مع قتل الغلام حين لقائه .(٣)

---

(١) الآية (٨٠) من سورة الشعراء .

(٢) الكشاف ٤٩٦/٢، كشف المعاني صـ٢٤٣، القرطبي ٤٠٧٨/٥ .

(٣) الكشاف ٤٩٣/٢.

وتعجب من تكرار (ذات) في قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ .(١)

لأن المدة بين التقليبين طويلة حتى قال بعض المفسرين إنها سنة .(٢) لو قال: "ونقلبهم ذات اليمين والشمال" لفهم أن التقليب في الجهتين في وقت واحد . وتأمل التعبير بجملة: ونقلبهم وهي جملة فعلية لتكرار حصوله مرة بعد مرة منعاً لتآكل أجسادهم، وحين عبر عن بسط الكلب ذراعية عبر بالجملة الاسمية فقال: وكلبهم باسط ذراعيه، لثبوته ودوامه .

وأيضا تكرار كلمة (منهم) في قوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ (٣) فتكرار (منهم) يدل على هول منظرهم وحالتهم التي تسبب الرعب وليس المكان الذي هم فيه .

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (٤) حيث تكرر (اصطفاك)، فالأولى لأن الله تقبلها من أمها ورباها واختصها بالكرامة وطهرها من كل سوء واصطفاها ثانياً على نساء العالمين بأن وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب ولم يكن ذلك لأحد من النساء.(٥)

---

(١) من الآية (١٨) من سورة الكهف .

(٢) الكشاف ٤٧٥/٢ وتفسير الرازي ٨٦/٢١ .

(٣) من الآية (١٨) من سورة الكهف .

(٤) من الآية (٤٢) من سورة آل عمران .

(٥) الكشاف ٤٢٩/١ .

وكذلك تكرار (البلد) في قوله تعالى ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [(١)] أقسم بالبلد الحرام، ثم بين أنهم يستحلون إخراجك من مكة وقتلك . ولذا كرر لفظ (البلد)، أو أراد بالبلد الثاني المدينة المنورة ويكون في الآية توجيه إلى حرمة البلدين .

أو أن المعنى أن الله وعده بفتح مكة في المستقبل تسلية له . أي أنت حل به في المستقبل تصنع فيه ما تريد . [(٢)]

❀❀❀

(١) الآية (١-٢) من سورة البلد .

(٢) الكشاف ١/٢٥٥، البرهان ٢/١٤٠ .

من أسرار التقديم و التأخير في القرآن الكريم

نجد في كتاب الله تعالى تقديمًا لبعض الألفاظ على غيرها مثل تقديم اللعب على اللهو في قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ [(١)]﴾، وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ [(٢)]﴾،وقدم اللهو على اللعب في قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا ﴾ [(٣)]، واللعب يقدم على اللهو في الأكثر ؛ لأن اللعب زمان الصبا وهو أسبق من زمن الشباب الذى يوافقه اللهو وعندما يقدم اللهو على اللعب ؛ لأن اللهو زمان الشباب وهو أكثر عادة من زمان اللعب وهو وقت الصبا، وقد يقدم الضرر على النفع في أكثر آيات القرآن الكريم ؛ لأن العابد يعبد معبوده خوفا من عقابه أولا ثم طمعا في ثوابه .

وحيث يتقدم النفع على الضرر فلأنه يقدم ما يتضمن النفع مثل: سورة الأعراف قال تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ ... ﴾ [(٤)] فقدم الهداية على الضلال ثم قال: ﴿ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ [(٥)] ﴾ فقدم الخير على السوء . ثم قال: ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾ [(٦)]

(١) من الآية (٣٢) من سورة الأنعام .

(٢) من الآية (٢٠) من سورة الحديد.

(٣) من الآية (٥١) من سورة الأعراف.

(٤) من الآية (١٧٨) من سورة الأعراف.

(٥) من الآية (١٨٨) من سورة الأعراف.

(٦) من الآية (١٨٨) من سورة الأعراف.

فقدم النفع على الضرر، وفي سورة يونس تقدم قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) ثم قال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ (٢) وفي سورة الفرقان تقدم: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ (٣) وهذه نعم . ثم قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ (٤) لأن دفع الضررأهم من جلب النفع فإذا تقدم في سياق الآيات الملك والقدرة كان ذكر دفع الضرر أهم، وإذا كان السياق في الدعاء والعبادة والسؤال كان ذكر النفع أولى وأهم (٥) .

ثم ينتقل إلى تقديم المال على الولد في التنزيل الحكيم وهو في كثير من آي القرآن لأن الولد بعد وجود المال نعمة ومسرّة، وعند الفقر هم ومضرّة . فهذا من تقديم السبب على المسبب. ففي قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (٦) .

فقدم المال من باب تقديم السبب لأنه شرع النكاح عند القدرة على سبب التزويج، والنكاح سبب للتناسل (٧) .

---

(١) من الآية (١٠٣) من سورة يونس.
(٢) من الآية (١٠٦) من سورة يونس.
(٣) من الآية (٤٥) من سورة الفرقان.
(٤) من الآية (١٨) من سورة يونس .
(٥) كشف المعانى ١٥١، البرهان ١٢٠/١.
(٦) من الآية (٢٨) من سورة الأنفال.
(٧) نتائج الفكر ٢٠٧، البرهان ٢٤٨/٣.

ولأن المال سبب للنعمة بالولد، وفقد المال سبب لشقائه أما في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ (١) . فبدأ بذكر الحب، والمحبوب مختلف المراتب فاقتضت الحكمة أن يقدم ما هو الأهم في الرتبة فبدأبذكر النساء لشدة الشهوة إليهن أكثر، ثم ذكر البنين وقدمها على المال ثم قدم الذهب على الفضة، وقدم الفضة على الخيل المسومة وسماها كلها شهوات حرصا على الاستمتاع بها (٢) .

وتأمل تقديم الجن على الإنس في أكثر الآيات وفي بعضها تقدم الإنس على الجن ؛ لأن الجن أثقل لفظا من الإنس لخفة النون والسين، فكان تقديم الأثقل أولى بأول الكلام لنشاط المتكلم .

ولأن الجن تشتمل على الملائكة وغيرهم مما جنّ وخفى واستتر على الأبصار . فقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (٣) ويقصدون الملائكة وأيضا الجن أقدم في الخلق من الإنس . فقال: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ﴾ (٤) . وقد يكون تقديم الجن على الإنس من باب تقديم الأعجب لأن خلقها أغرب، أو لأنهم أقوى أجساماً ولهذا قدم الجن في موضع إظهار القوة والإقدام فقال: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ (٥) .

---

(١) من الآية (١٤) من سورة آل عمران .
(٢) البرهان ٢٤٨/٣ .
(٣) من الآية (١٥٨) من سورة الصافات .
(٤) من الآية (٢٧) من سورة الحجر.
(٥) من الآية (١٧) من سورة النمل.

أما الآيات التي فيها لفظ الجن لا يشتمل على الملائكة فإنه يقدم فيها الإنس على الجن مثل قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ ﴾ [1] .

وقوله تعالى: ﴿لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [2] .فبدأ بلفظ الإنس لشرفهم وكمالهم، ولفظ الجن هنا لا يتناول الملائكة لتزاهتهم عن العيوب [3] .

وأحيانا تؤخر العرب في كلامها ما هو أهم للامتنان به إذا كان المقام لتعداد الفضائل والمكارم .

فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ [4] .

قد يظن بعض الناس أنه قدم الأهم وهو الخيل ثم البغال ثم الحمير .

ولكن الآية سارت على سنن العرب حين يؤخرون الأهم . فالحمير عندهم أهم من الخيل والبغال ؛ لأن أكثر الناس يستفيدون من الحمير حيث يقدرون عليها، ولا يقدرون على الخيل، ويستطيع أكثرهم الحصول على البغال أكثر من الخيل . فهنا أخر الأهم حسب سنن العرب في كلامها [5] .

وهنا سؤال: لم قال لتركبوها، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا﴾ [6] ذكر (فيها)، وركب يتعدى بنفسه ؟

(١) من الآية (٢٦) من سورة الرحمن.
(٢) من الآية (٣٩) من سورة الرحمن.
(٣) البرهان ٢٥٨/٣، نتائج الفكر ٢٧٠.
(٤) من الآية (٨) من سورة النحل .
(٥) نظرات لغوية في القرآن الكريم –للدكتور /صالح صـ١٤٤ .
(٦) من الآية (٤١) من سورة هود .

من أسرار النظم القرآني
آيات وعبر

والسر في ذلك: أن معنى الركوب العلو على شيء له حركة إما إرادية كالحيوان أو قهرية كالسفينة. فإذا استعمل الأول جاء تعديته على الأصل: لتركبوها .

وإن استعمل الثاني كالسفينة ونحوها تزاد (في) [1] . ولذا قال:

اركبوا فيها . قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ [2] ﴾، وقال تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ [3] ولذا قال: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [4] وحمل يتعدى بـ (على)، ولكن قال: احمل فيها كما قال: اركبوا فيها أما قوله في آية المؤمنون: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ [5] فالحمل يناسبه (على) والمحمولون هم الناس الذين يكونون عادة في أعلاها فناسبت التعدية بـ (على) الدالة على الاستعلاء . [6]

ومما قدم في القرآن أيضا: تقديم السمع على البصر، وقد تحدثنا عن السمع والبصر قبل ذلك في مسألة مجيء السمع مفردا دائما أما البصر فيأتي مفردا وجمعا .

يقول الزركشي: "إن شرف الإدراك اقتضى تقديم السمع على البصر، والسميع على البصير إذ السمع أشرف على أرجح القولين عند جماعة " [7]

(١) روح المعاني للألوسي ٨٣/١٢.
(٢) من الآية (٦٥) من سورة العنكبوت.
(٣) من الآية (٧١) من سورة الكهف.
(٤) من الآية (٤٠) من سورة هود.
(٥) الآية (٢٢) من سورة المؤمنون .
(٦) البحر الميط ١٥٢/٦ .
(٧) البرهان ٢٥٤/٣ .

وقد نقل الدكتور: عبد الجواد المحص رأيا علميا عن الطبيب: مصطفى محمود قوله: "لأن السمع أكثر إرهافا وكمالا من البصر . إننا نسمع الجن ولا نراه، والأنبياء سمعوا كلام الله وكلموه ولم يروه، وقد تلقى محمد ﷺ القرآن سمعا، والأم تميز بكاء ابنها في الزحام ولا تميز وجهه، والسمع يصاحب الإنسان أثناء نومه في حين تنام عيناه، ومن حاول تشريح جهاز السمع يعلم أنه أعظم دقة وإرهافا من جهاز البصر ولهذا ترى السمع دائما أولا ومقدما على البصر " (١).

واجتمع السمع مع البصر في كتاب الله تعالى في تسعة عشر موضعا قدم فيها السمع في أربعة عشر موضعا، وأخره في خمسة مواضع . منها قوله تعالى: ﴿ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ ﴾ (٢)، ومنها ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ (٣) وقال أبوالسعود رحمه الله: "وسر تقديم السمع على البصر والله أعلم لأن جنايتهم من حيث السمع الذي به تتلقى الأحكام الشرعية، وبه يتحقق الإنذار أعظم منها من حيث البصر الذى به تشاهد الأحوال الدالة على التوحيد، فبهذا أحق بالتقديم وأنسب بالمقام، ولأن السمع شرط النبوة ولذلك ما بعث الله رسولا أصم، ولأن السمع وسيلة إلى استكمال العقل بالمعارف "(٤) .

---

(١) الجمال في القرآن صـ ٧١ نقلا عن حوار مع صديقي صـ٩٦.

(٢) من الآية (٢٦) من سورة الكهف .

(٣) من الآية (٢٤) من سورة هود .

(٤) تفسير أبي السعود ٣٨/١ .

ولذا جاء الحديث الذي رواه أحمد وغيره (١): **" ثلاثة كلهم يدلي على الله بحجته يوم القيامة فذكر منهم رجلا أصم يقول: يا رب لقد جاء الإسلام وأنا لا أسمع شيئا "** .

واحتج ابن القيم لتفضيل السمع على البصر فقال: واحتج مفضلوا السمع بأن الله تعالى يقدمه حيث وقع، وبأن السمع تنال به سعادة الدنيا والآخرة،وبأن العلوم الحاصلة من السمع أضعاف العلوم الحاصلة من البصر، فإن البصر لايدرك إلا بعض الموجودات المشاهدة بالبصر القريبة، والسمع يدرك الموجودات والمعدومات والحاضر والغائب والقريب والبعيد والواجب والممكن والممتنع فلا نسبة لإدراك البصر إلى إدراكه . (٢)

وقد ذكر السهيلي في كتابه (نتائج الفكر) أصلا وضابطا لتقديم ما جاء مقدما على غيره مثل السميع العليم، والعزيز الحكيم، والظلمات والنور، والليل والنهار، والسماء والأرض، وقال: وليس شيء من ذلك يخلو عن فائدة وحكمة لأنه كلام الحكيم الخبير، والتقديم في اللسان على حسب تقدم المعاني في القلوب، والمعاني تتقدم بأحد خمسة أشياء . إما بالزمان وإما بالطبع وإما بالرتبة وإما بالسبب وإما بالفضل والكمال .

فإذا سبق معنى من المعاني إلى الفكر بأحد هذه الأسباب الخمسة أو بأكثرها سبق اللفظ الدال على ذلك المعني وكان ترتب الألفاظ بحسب ذلك وربما كان ترتب الألفاظ بحسب الخفة والثقل لا بحسب المعنى . وربما قدم الشيء لثلاثة معان أو أربعة مما سبق وربما قدم لمعنى واحد منها .

---

(١) المسند ٢٤/٤ .

(٢) بدائع الفوائد ٧١/١ .

ومن هذا النحو: الجن والإنس كما ذكرنا فإن الإنس أخف لفظا لمكان النون والسين، وقدم الجن وهو الأثقل لفظا لنشاط المتكلم في أول كلامه وهناك أسباب أخرى ذكرتها في تقديم الجن على الإنس.

ومما يتقدم على غيره بتقدم الزمان مثل: الظلمات والنور فإن الظلمة سابقة للنور في المحسوس والمعقول قال ﷺ: **"إن الله خلق عباده في ظلمة ثم ألقى عليهم من نوره"** [1]

ويتبع ذلك تقديم الليل على النهار فهو سابق بالزمان والإيجاد[2] ولذا اختارت العرب التاريخ بالليالي دون الأيام فإن قيل فما معنى قوله تعالى: ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ [3]:

قيل المعنى: أن الليل لا يجيء أثناء النهار كما أن الشمس لا تجيء أثناء الليل.[4]

ومما تقدم بالطبع كتقدم الأعداد على بعضها نحو (مثنى وثلاث ورباع)، ونحو تقدم العزيز على الحكيم، لأنه عز فلما عز حكم، وتقديم العليم على الحكيم في أكثر القرآن ؛ لأن الإتقان ناشيء عن العلم [5].

(١) أخرجه أحمد والترمذي – الفتح الكبير ٣٣٤/١ .

(٢) البرهان ٢٤١/٣ .

(٣) من الآية (٤٠) من سورة يس .

(٤) الكشاف ٣٢٣/٣، البرهان ٢٤١/٣ .

(٥) البرهان ٢٤٧/٣.

وربما كان هذا من تقدم السبب على المسبب نحو قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [1] لأن التوبة سبب للطهارة وكذلك قوله تعالى: ﴿ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [2] لأن الإفك سبب للإثم .

وقد يقول قائل: لم قدم التوفي على الرفع في قوله تعالى: ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [3] مع أن الرفع سابق ؟

قيل: لأن (متوفيك) بمعنى موفيك عملك ثم رافعك إلي[4].

وقيل: متوفيك بمعنى قابضك مثل توفيت مالي من فلان أي قبضته[5].

ومما تقدم بالرتبة قوله تعالى: ﴿ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ ﴾ [6] لأن الذي يأتي راجلا يأتي من المكان القريب، والذي يأتي على الضامر يأتي من المكان البعيد[7]، وقد يكون الأجر في المشي مضاعفا فقدمه على الركوب .

ومما قدم للفضل والشرف تقديم السمع على البصر كما قدمنا، وتقديم السميع على البصير، وتقديم الجن على الإنس في أكثر المواضع، وتقديم السماء على الأرض .

(١) من الآية (٢٢٢) من سورة البقرة .

(٢) من الآية (٢٢٢) من سورة الشعراء .

(٣) من الآية (٥٥) من سورة آل عمران .

(٤) البرهان ٢٤٤/٣ .

(٥) القرطبي ١٣٤٢/٢ .

(٦) من الآية (٢٧) من سورة الحج .

(٧) النتائج صـ ٢٧٠ .

وأما تقديم الغفور على الرحيم فهو أولى بالطبع، لأن المغفرة سلامة والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة [١].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ [٢] فقدم الرحمة على المغفرة إما بالفضل والكمال وإما بالطبع لأنها منتظمة بذكر أوصاف الخلق من المكلفين وغيرهم من الحيوان فالرحمة تشملهم جميعا والمغفرة تخص بعضهم والعموم هنا جاء قبل الخصوص كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ [٣] بدأ بالفاكهة وهي العموم الذي هو متقدم بالطبع على الخصوص [٤].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [٥] قدم إحياء الأرض، لأنه سبب إحياء الأنعام والأناسيّ، وقدم إحياء الأنعام لأنه مما يحيا به الناس بأكل لحومها وشرب ألبانها[٦]. ولذا قال: ﴿ تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ﴾ [٧] وهذا من باب تقديم السبب.

(١) النتائج صـ ٢٧١، البرهان ٣/٢٤٩ .

(٢) من الآية (٢) من سورة سبأ .

(٣) من الآية (٦٨) من سورة الرحمن .

(٤) البرهان ٣/٢٤٩ .

(٥) من الآية (٤٨ – ٤٩) من سورة الفرقان .

(٦) البرهان ٣/٢٤٧ .

(٧) من الآية (٢٧) من سورة السجدة .

ومما قدم للفضل والشرف قوله تعالى: ﴿ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [١] لأن السجود أفضل، وقد يقال إن الركوع قبل السجود وهو انتقال من علو إلى انخفاض فهلا قدم في الذكر على السجود وهذا هو الطبع والعادة . قال تعالى: ﴿ ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا ﴾ [٢]، وقال تعالى: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [٣] .

يجاب عن ذلك: بأنه عبر بالسجود عن الصلاة كلها، وأراد صلاتها في بيتها، وذلك أفضل لها من صلاتها مع قومها ثم قال لها: اركعي مع الراكعين، أي صلي مع المصلين في بيت المقدس، ولم يرد بالركوع في الآية أيضا الركوع المعروف المجرد وإنما عبر بالركوع عن الصلاة كلها أيضا فصارت الآية متضمنة صلاتين صلاتها وحدها في بيتها عبر عنها بالسجود فكما أن السجود أفضل فصلاتها في بيتها أفضل لها، ثم صلاتها في المسجد مع قومها عبر عنها بالركوع لأنه في الفضل دون السجود، فكذلك صلاتها في المسجد مع المصلين دون صلاتها في محراب بيتها وهذا نظم بديع عجيب [٤] .

ولم قال: واركعي مع الراكعين ولم يقل مع الراكعات ؟

(١) من الآية (٤٣) من سورة آل عمران .

(٢) من الآية (٧٧) من سورة الحج .

(٣) من الآية (٢٩) من سورة الفتح .

(٤) الكشاف ١/٢٧٧، البرهان ٣/٢٤٥ –٢/٢٦٦، النتائج صـ ٢٧٢ .

قد يكون هذا من باب التغليب فعد الأنثى من الذكور مثل: وكانت من القانتين ولم يقل: القانتات، وقد يكون إيذانا بوضعها في العباد المجتهدين في العلم وهذا من أوصاف الرجال وعلى هذا ليس من التغليب .[1]

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴾[2] فعد الأنثى من الذكور وهو من باب التغليب، ومما يليق ذكره بهذا الموضع هو النظم العجيب في قوله تعالى: ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾[4] .

بدأ في الآيتين بالطائفين للرتبة والقرب من البيت ثم تلاه بالقائمين لأنه في معنى العاكفين في آية البقرة ؛ لأنهم يخصون موضعا بالعكوف والقيام . أما الطواف فهو أعم . والأعم يذكر قبل الأخص وثلث بالركوع ؛ لأن الركوع لا يلزم أن يكون في البيت ولا عنده، ولم يجمعه على (الراكعين) كما قال الطائفين والعاكفين ؛ لأن المستقبل للبيت بالركوع لا يختص بالقرب منه مثل الطائفين والعاكفين، ولا يلزم الركوع أن يكون في البيت ولا عنده، ثم وصف الركّع بالسجود، ولم يعطف بالواو كما عطف ما قبله ؛ لأن الركع هم السجود والشيء لا يعطف بالواو على نفسه فالمراد بهما شيء واحد وهو

(١) البرهان ٣٠٢/٣ .
(٢) من الآية (٨٣) من سورة الأعراف .
(٣) من الآية (١٢٥) من سورة البقرة .
(٤) من الآية (٢٦) من سورة الحج .

الصلاة، إذ لو عطف أحدهما على الآخر لتوهم أن كل واحد منهما عبادة على حالها .[1]

والسجود هنا جمع ساجد، وليس مصدر سجد، وأيضا الراكع إن لم يسجد فليس براكع في حكم الشرع .

ولو عطف بالواو لتوهم أن الركوع حكم خاص يشعر بالتميز، وأوهم إرادة السجود بمعنى المصدر .

وهنا سؤال: لما قال السجود على وزن فُعُول جمع ساجد ولم يقل السجَّد كما قال الركّع في آية أخرى ﴿ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾[2] ، وما الحكمة في جمع ساجد على سجود ولم يجمع راكع على ركوع ؟

والجواب: أن السجود في أصله عبارة عن الفعل وهو وضع الجبهة على الأرض وعلى الخشوع ويتناول السجود الظاهر والباطن .ولو قال: السجّد جمع ساجد لم يتناول إلا المعنى الظاهر .وكذلك الركّع . ولذا قال: ﴿ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾[3] يعني رؤية العين وهي لاتتعلق إلا بالظاهر، ولذا قال: الركّع وهو الركوع الظاهر لعطفه على ما قبله، ثم وصف الركّع بالسجود الذي يدل على المعنى الباطن، إذ لا يصح الركوع الظاهر إلا بالسجود الباطن . وهذا هو النظم البديع .

(١) الدر المصون ٣٦٦/١، البرهان ٢٥٠/٣ .
(٢) من الآية (٢٩) من سورة الفتح .
(٣) من الآية (٢٩) من سورة الفتح .

وسؤال آخر: كيف جمع الطائفين والقائمين جمع تصحيح والركع جمع تكسير ؟ لأن جمع السلامة أقرب إلى لفظ الفعل . فطائفون بمنزلة يطوفون وفي لفظه إشعار بالحركة والحدوث والتجدد . وكذلك القائمون والعاكفون . وأما الراكعون فلأنه لايلزم أن يكون الركوع في البيت أو عنده فلم يجمع جمع سلامة .إذلا يحتاج فيه إلى بيان الفعل والحركة والتجدد.[1]

وقد يكون التقديم لشيء معين لشهرته أكثر في الرجال أوفي النساء مثلا . مثل قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ [2] ﴾لأن السرقة في الذكور أكثر، ولذا قدم في الزنى المرأة فقال: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي [3] ﴾ ؛لأن الزنى فيهن أكثر حيث إنها هي الداعية إليه والمحرضة عليه والمزينة له . فلذا بدأ بذكرها .

وأما قوله: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً [4] ﴾ فالآية مسوقة لذكر النكاح وهو عقد الزواج والرجل هو الأصل في عقد النكاح وهو الراغب والخاطب فبدأ بذكره .[5]

وقد يقع التقديم في موضع والتأخير في آخر والقصة واحدة، واللفظ واحد للتفنن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أساليب .

(١) البرهان ٣/٢٥٠، نتائج الفكر صـ٢٧٤ .
(٢) من الآية (٣٨) من سورة المائدة .
(٣) من الآية (٢) من سورة النور .
(٤) من الآية (٣) من سورة النور .
(٥) البرهان ٣/٢٦١، الكشاف ٣/١٦٨ .

انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [1] ، وقال: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُواْ حِطَّةٌ وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [2] .

أما آية البقرة فلما افتتح ذكر بني إسرائيل بذكر نعمه عليهم بقوله: " يابني إسرائيل اذكروا نعمتي " ناسب ذلك نسبة القول إليه (وإذا قلنا) وناسب قوله: (رغدا) لأن النعمة به أتم .ولم يذكر (رغدا)في سورة الأعراف . وناسب قوله: (وادخلوا الباب سجدا) وقوله: (خطاياكم) لأنه جمع كثرة، أما في الأعراف (خطيئاتكم) جمع قلة مؤنث سالم فناسب في البقرة تكثير النعم والفضائل وعكسه في الأعراف وناسب قوله (وسنزيد المحسنين) بالواو للجمع بينهما . وفي الأعراف (سنزيد) بغير واو فيكون اتصاله بما قبله أقوى بسبب إسناد القول إلى الله (وإذ قلنا) وفي الأعراف (وإذ قيل) فالقول غير مسند لله فناسب حذف الواو فيكون الكلام استئنافا ، وناسب الفاء في (فكلوا) لأن الأكل مترتب على الدخول . أما في الأعراف (وكلوا) وآية الأعراف افتتحت بما فيه توبيخ لهم ؛ لأنهم اتخذوا العجل وقالوا (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) فناسب ذلك (وإذ قيل لهم) تحقيرا لشأنهم، ولم يذكر معه ما يدل على شدة الإكرام كما ذكر في البقرة وأمرهم بالسكنى وهي الاستقرار . أما في البقرة فقال: ادخلوا .

(١) الآية (٥٨) من سورة البقرة .
(٢) الآية (١٦١) من سورة الأعراف .

والاستقرار ممتد ويمكن أن يكون معه الأكل فقال: وكلوا بالواو وناسب ذلك ترك (رغدا) والسكن يجامع الأكل فقال): وكلوا) . وناسب تقديم ذكر مغفرة الخطايا. وترك الواو في (سنزيد) .[1]

فالمراد في البقرة الإسراع في الدخول والأكل والسجود، وفي الأعراف المراد الاستقرار والتمتع والأكل.

وتأمل عظمة التعبير والتفنن عند قوله في الأعراف: (فبدل الذين ظلموا منهم)، وفي البقرة (فبدل الذين ظلموا) بغير منهم ؛ لأن في الأعراف قال قبلها: (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) فذكر أن منهم من يفعل ذلك فلكي يناسب أول القصة آخر القصة قال: (ظلموا منهم) لتناسب: (ومن قوم موسى)، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ﴾ [2]، وفي سورة الإسراء: ﴿ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم ﴾ [3] ، لأن الخطاب في الأولى للفقراء بدليل من إملاق، فكان تقديم (رزقكم) أهم عندهم من رزق أولادهم، وفي الثانية للأغنياء بدليل خشية إملاق، والخشية تكون مما لم يقع فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم .[4]

(١) كشف المعاني صـ٩٧.
(٢) من الآية (١٥١) من سورة الأنعام .
(٣) من الآية (٣١) من سورة الإسراء .
(٤) البرهان ٣/ ٢٨٥، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل ١ /٢٢٧، نظرات لغوية في القرآن صـ٣٨ ..

وقد يقدم الوصف بقصد تحقيق الغرض ولو أخر لفات الغرض .مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ [1] فإنه لو أخر فقال: يكتم إيمانه من آل فرعون لا يفهم أنه من آل فرعون[2]، ومن الوجهة النحوية أنه إذا نعت بمفرد وظرف وجملة قدم المفرد على الظرف والظرف على الجملة غالبا فيهن . كما حدث في هذه الآية فوصف رجل بالمفرد وهو مؤمن، ثم الظرف أي الجار والمجرور وهو(من آل فرعون) ثم بالجملة وهي يكتم إيمانه .[3]

ولما كان الظرف فيه شبه من المفرد وشبه من الجملة جُعل بينهما . ومن ذلك: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ﴾ [4] . حيث قدم الوصف بشبه الجملة على الجملة . ومن ذلك قوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنتُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [5] حيث قدم الوصف بالمفرد على الوصف بالجملة .[6]

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [7] .

(١) من الآية (٢٨) من سورة غافر .
(٢) البرهان ٢٣٣/٣ .
(٣) التصريح ١٢٠/٢ .
(٤) من الآية (٢٣) من سورة المائدة .
(٥) الآية (٥٠) من سورة الأنبياء .
(٦) البرهان ٢٧٢/٣.
(٧) الآية (٤٧) من سورة الصافات .

لم يقل: لا غول فيها، فقدم الجار والمجرور ؛ لأن ذلك يفيد التفضيل أى ليس في الجنة مافي خمر آخر من الغول . أما إذا قال: لا غول فيها، فإن ذلك يفيد نفي الغول فقط . كما في قوله: لا ريب فيه فإذا قلت: لا عيب في فلان كان معناه نفي العيب عنه فقط . ولو قلنا: لافي فلان عيب كان معناه أنك تفضله على غيره بعدم العيب . (1)

وأيضا في قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (2) لما وقع النزاع من الكفرة في أن له ولدا اقتضى المقام تقديمه في الذكر اعتناء به وللرد عليهم فيما ادعوه، أما كونه يولد فلم ينازع فيه أحد من الأمم فلذا أخره . وكان القياس يقتضي تقديم أنه لم يولد على كونه لم يلد . (3)

وانظر إلى الإبداع في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (4) . حيث قدم تريحون على تسرحون، مع أن السراح هو الأول ؛ لأن الجمال كله في الإراحة ؛ لأنها حين تسرح تكون خماصا وحين تروح تكون بطانا فسرور النفس بها يتم حين تقبل ملأى البطون حافلة الضروع وتأوي إلى حظائرها . (5)

---

(1) البرهان ٣/٢٣٧ .

(2) الآية (٣) من سورة الإخلاص .

(3) البرهان ٣/٢٧٢ .

(4) الآية (٦) من سورة النحل .

(5) البرهان ٣/٢٦٢، الكشاف ٢/٤٠١، القرطبي ٥/٣٦٨٧ .

والجمال كله في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ (1) .

قدم الجباه ثم الجنوب ثم الظهور ؛ لأن مانع الصدقة في الدنيا كان يصرف وجهه أولا عن السائل ثم ينوء بجانبه ثم يتولى بظهره فجاء ترتيب الآية في العقاب على ترتيب الخطأ في الدنيا . (2)

وقد يقدم اللفظ لغرض الاعتناء ليطابق السياق كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ (3) وقوله: ﴿وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ (4)، والأنعام آية (١٤٥)، والنحل آية (١١٥) .

ففي البقرة قدم (به) على لفظ الجلالة، وفي غيرها قدم لفظ الجلالة . لأن المائدة وردت بعد تعظيم شعائر الله وأوامره فكان تقديم اسمه أهم . وكذلك آية النحل بعد قوله: ﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ (5) فكان تقديم اسمه أهم، وأيضا آية النحل والأنعام نزلتا بمكة فكان تقديم ذكر الله بترك ذكر الأصنام على ذبائحهم أهم لإفراده بالتسمية على الذبائح، وآية البقرة نزلت بالمدينة على المؤمنين لبيان ما يحل وما يحرم فقدم الأهم وهو (به) . (6)

---

(1) من الآية (٣٥) من سورة التوبة .

(2) البرهان ٣/٢٦٨ .

(3) من الآية (١٧٣) من سورة البقرة .

(4) من الآية (٣) من سورة المائدة .

(5) من الآية (١١٤) من سورة النحل .

(6) كشف المعاني صـ ١١١ .

وأحيانا يكون التقديم حسب النعمة والفضل الأهم والأعلى مرتبة . ففي سورة الرحمن تجده بـدأها بقولـه: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ﴾ [1] .

عدد الله نعمه فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق في ضروب نعمه وهي نعمة الدين . ورمز لنعمة الدين بما هو أعلى مراتبها وهو نعمة القرآن تنزيلا وتعليما وهو سنام الكتب السماوية . وأخر خلق الإنسان عن ذكر القرآن ليبين أنه إنما خلقه ليتعلم القرآن [2] .

وتأمل الجمال في أنه حذف الإنسان من الأول . أي علم الإنسان القرآن، وأظهره في خلق الإنسان وجاء به مضمرا في (علمه البيان) فأي جمال في هذا التنويع .

وقد يقال ما السبب في أنه قدم الخلق على التعليم في سورة العلق قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [3] عكس سورة الرحمن .

والجواب: أن سورة (اقرأ) هي أول ما نزل من القرآن ولم يكن القرآن معهودا للنبي حينئذ ولا لغيره فكان الأنسب هنا الابتداء بتقديم الخلق، أما في سورة (الرحمن) فإنها نزلت بعد معرفة القرآن وشهرته عندهم فكان الأنسب للسياق الابتداء بتعليمه [4] .

(١) الآية (١-٢-٣) من سورة الرحمن .

(٢) الكشاف ٤٣/٤.

(٣) الآية (١-٢-٣) من سورة العلق .

(٤) كشف المعاني صـ ٣٤٦.

وقد يكون التقديم للاختصاص مثل قوله: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [1] فإنه يفيد اختصاص ذلك بالله تعالى، وقوله ﴿لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ [2] وليس لغيره.وقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [3] ففي الأول قدم (شهداء) على الناس ؛ لأن الغرض منه إثبات شهادتهم على الأمم . وأخر (شهيدا) عن (عليكم) في الثاني ؛ لأن الغرض بيان اختصاصهم بكون الرسول شهيدا عليهم [4]

ومثل قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [5] فقدم (للناس) على(رسولا)؛ لأن الغرض إثبات أنه رسول لجميع الناس من العرب والعجم . وليس القصد إثبات الرسالة له فقط .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ﴾ [6] أي له وحده العبادة، ونحو قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ [7] ، ولو قال: أأنت راغب عنها ما أفادت زيادة الإنكار على إبراهيم . [8]

❁❁❁

(١) الآية (١) من سورة التغابن .

(٢) من الآية (١٥٨) من سورة آل عمران .

(٣) من الآية (١٤٣) من سورة البقرة .

(٤) البرهان ٣ /٢٣٧ .

(٥) من الآية (٧٩) من سورة النساء .

(٦) من الآية (١٤) من سورة الزمر .

(٧) من الآية (٤٦) من سورة مريم .

(٨) البرهان ٣ /٢٧٦.

من أسرار النظم في سورة يوسف

إذا كان القرآن يقول: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾ [1] في شأن امرأة العزيز فأنا أقول قد شغفني أمر هذه السورة حبا وجمالا لأسباب عديدة منها:

الأول: أنه جاء في أولها قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ [2]﴾ ومجيء هذا الوصف في مطلع السورة يوحي بأحداثها وجمالها وآلامها والمحن التي مر بها يوسف، والصبر والحزن والألم والشكوى إلى الله ومحنة السجن، ولقاء إخوته، ورجوعه إلى أبيه وغير ذلك من الأحداث .

الثاني: قول الآلوسي: وجه أحسنيتها: اشتمالها على حاسد ومحسود، ومالك ومملوك، وشاهد ومشهود، وعاشق ومعشوق، وحبس وإطلاق، وذنب وعفو، وفراق ولقاء ووصال، وسقم وصحة، وحل وارتحال، وذل وعز [3].

الثالث: أن الله تعالى جعل القصص الأخرى في كتابه عبرة فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [4] .
أما يوسف فجعلها أحسن القصص.

الرابع: أن القصص عن الأمم والأنبياء والرسل يتكرر في القرآن كقصة إبليس في السجود لآدم، وقصة موسى وعيسى ونوح وغيرهم . وتكرار القصة الواحدة في سور عديدة لفوائد منها: أنه يكرر ليزيد فيها شيئا ألا ترى

(١) من الآية (٣٠) من سورة يوسف.
(٢) من الآية (٣) من سورة يوسف.
(٣) روح المعاني ١١/١٧٦، الجمال في القرآن للدكتور عبد الجواد المحص ص ١٧٩.
(٤) من الآية (١١١) من سورة يوسف.

من أسرار النظم القرآني
آيات وعبر

أنه ذكر الحية في عصا موسى، وذكرها في موضع آخر ثعبانا، وفائدته أنه ليس كل حية ثعبانا . ثم إن إبراز الكلام الواحد في فنون كثيرة وأساليب مختلفة لايخفى مافيه من الفصاحة، وتكرار ذكر القصة الواحدة في مواضع إعلاما بأنهم عاجزون عن الإتيان بمثله بأي نظم أوعبارة . وأن الله ألبس هذه القصص زيادة ونقصانا وتقديما وتأخيرا ليخرج بذلك الكلام من أن يكون شيئا معادا والنفس جبلت على حب التنقل والتلذذ أن تسمع المعاني التي اشتملت عليها القصة الواحدة بعبارات مختلفة فيجد ميلا إلى سماعها [1].

وفي تفسير القرطبي: "ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة بألفاظ متباينة على درجات البلاغة " [2].

الخامس: أن أحداث سورة يوسف لم تتكرر في سور القرآن ولكن سيقت بمساق واحد في موضع واحد دون غيرها من قصص القرآن وسميت بسورة يوسف . وقد يقال إن اسم يوسف جاء في سور أخرى مثل الأنعام وغافر ولكنه مجرد إشارة لاسمه دون ذكر أحداث قصته .

والجواب عن ذلك السؤال وهو لم انفردت الأحداث في قصة يوسف بسورة واحدة في القرآن ؟

أن النسوة تعلقت به، وافتتن به النساء وامرأة العزيز وهو أبدع الناس جمالا . وأرفعهم خلقا فناسب عدم تكرارها لمافيها من الستر عن ذلك . وقد صحح الحاكم في مستدركه حديثا مرفوعا: " النهي عن تعليم النساء سورة

(١) البرهان ٤ /٢٥ .
(٢) تفسير القرطبي ٤/٣٣٤٧ .

يوسف "، وأيضا قصة يوسف اختصت بحصول الفرج بعد الشدة وكل من ذكر فيها كان مآله السعادة .انظر إلى يوسف وأبيه وإخوته، وامرأة العزيز، وقيل إن الملك أسلم بيوسف وحسن إسلامه . فكان أمرهم جميعا خير بخلاف غيرها من القصص فإن مآلها إلى الوبال كقصة إبليس وقوم نوح وهود وصالح وغيرهم . فلما اختصت بذلك خرجت عن سمت القصص .

وأيضا قصة يوسف بما طعن في شرفه حين اتهمته امرأة العزيز وكان لابد من الرد على هذا الطعن وتبرئته في السورة نفسها حتى لا يؤجل الحكم ببراءته إلى سورة أخرى فيطول الطعن به .[1]

وأيضا عناصر التشويق في هذه السورة عديدة وكلها تحتاج إلى جواب وبيان مثل رؤيا يوسف في أول السورة ثم رؤيا صاحبي السجن، ثم رؤيا الملك وكيف علم الله يوسف تأويل هذه الرؤى إذ لايناسب ذكر جانب من هذه الرؤى في سورة وجانب في سورة أخرى ثم يضاف إلى ذلك ما جاء في هذه السورة من الكيد والمكر والحيل . ويضاف لذلك قصته مع إخوته وقصة الذئب وقد جاءوا على قميصه بدم كذب . وكما قال أحد الباحثين: إن القميص كان عنصرا أصيلا بارزا في هذه السورة فقد ذكر فيها ثلاث مرات في بدايتها ووسطها وقرب نهايتها . حتى يمكن القول: إن قصة يوسف كلها في قميصه[2]، وقيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات: كان دليلا ليعقوب على كذبهم ، وألقاه على وجهه فارتد بصيرا، ودليلا على براءة يوسف حين قدّ من دبر .

(١) البرهان ٤/٢٩ .
(٢) الجمال في القرآن الكريم صـ١٩١ .

وإذا كان القرآن الكريم سمى سورا أخرى بأسماء الأنبياء مثل سورة إبراهيم وسورة نوح وسورة يونس وسورة هود فإن القرآن ذكر أحداث هؤلاء الأنبياء في سور أخرى غير السورة التي سميت باسمهم. فنوح ذكرت قصته في سور أخرى مثل هود مثلا .أما قصة يوسف فجاءت في موضع واحد بأحداثها وتاريخها وأبطالها والعبر التي برزت فيها .

ولذا أردت أن أذكر أسرار النظم القرآني في سورة يوسف مجتمعه في موضع واحد أيضا . وإليك بعض هذه الأسرار التي وفقني الله اغتنامها .

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [1] لم قال يا أبت، بتاء التأنيث والأب يذكر .

والجواب: أن التاء ليست للتأنيث وإنما هي مثل قولهم: شاة وحمامة ورجل ربعة أي معتدل القامة، أوالتاء للمبالغة والتعظيم للأب كما في: رجل علاّمة وراوية وفهامة ونسّابة .

ولم أخر الشمس والقمر عن الكواكب ؟ والجواب: أنه على طريق الاختصاص بيانا لفضلها بالمزية على غيرها كما أخر جبريل وميكال عن الملائكة ثم عطفها عليها .

ولماذا كرر(رأيت) ؟هذا ليس بتكرار إنما هو مستأنف على تقدير سؤال. كأن يعقوب قال له: كيف رأيتها سائلا على حال رؤيتها . فقال

(١) الآية (٤) من سورة يوسف .

رأيتهم لي ساجدين، أو لأن الكلام طال بين الفعل والحال فأعاد الفعل ثانية لمناسبة الحال وهي المقصودة .

لم قال (رأيتهم لي ساجدين) فجاء للعقلاء .

والجواب: أنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود أجرى عليها الحكم كأنها عاقلة وهذا كثير شائع في كلامهم . كقوله تعالى: ﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴾ (١) فلما كانت السماء والأرض ممن يقول وهي حالة عقل جرى الضمير في طائعين على العقلاء فجعل للأرض والسماء حياة وإدراكا يقتضي النطق . (٢)

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ﴾ (٣)

لم قال: فيكيدوا لك فعداه باللام ولم يقل: فيكيدوك كما قيل: فكيدوني .

والجواب: أنه ضمن معنى فعل يتعدى باللام أي فيحتالوا لك ؛ ليفيد معنى فعل الكيد مع إفادة معنى الفعل المضمن فيكون آكد وأبلغ في التخويف وقد أكده بالمصدر (كيدا) (٤) .

(١) من الآية (١١) من سورة فصلت .
(٢) الكشاف ٢/٣٠١، البرهان ٢ /٢٤٤ .
(٣) من الآية (٥) من سورة يوسف .
(٤) الكشاف ٢/٣٠٣، الكشاف ٤ /٣٣٥٥

وهذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير ناصح ورفيق كما قال النبي ﷺ: "لاتحدثوا بها إلا عاقلا أو محبا أو ناصحا "، ويفهم من هذه الآية أيضا أن يعقوب علم بتأويل الرؤيا وأن يوسف سيكون له شأن، والأخ لا يود ذلك لأخيه أما الأب فيود أن يكون ولده خيرا منه فلا حسد من الأب لابنه .

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ (١)

لم جاء الفعل (قال) مذكرا والفاعل نسوة مؤنث ؟

والجواب: أن النسوة اسم جمع لامرأة . ونسوة ليس لها مفرد من لفظها وإنما مفردها من معناها وهو امرأة . مثل: النساء والقوم والرهط والنفر . واسم الجمع . تأنيثه غير حقيقي ولذا لم تلحق فعله علامة التأنيث ويجوز أن تقول في غير القرآن: وقالت نسوة . مثل: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ﴾ (٢) .

وهنا إشارات بليغة فقوله: نسوة في المدينة يدل على مدى انتشار الخبر بين النساء . فالنسوة متفرقات في المدينة حيث تدل كلمة (المدينة) على الكبر والسعة . وقوله: امرأة العزيز دون تسميتها يشعر باستهجان النساء وهذا العمل لوقوعه من امرأة ذات زوج . وليس أي زوج وإنما هو العزيز وكبير مصر فكيف تجرؤ على تدنيس كرامة عزيز مصر ؟

وقوله: (تراود فتاها) بإضافة (فتى) إلى ضميرها مبالغة في التقبيح لها . فهو مملوك لها لا رجل حر فكيف تراوده .

(١) من الآية (٣٠) من سورة يوسف .
(٢) من الآية (١٤) من سورة الحجرات .

وقوله: (تراود) بصيغة المضارع للدلالة على أنها ما زالت تراوده .

فهي راودته وتراوده بدليل قولها بعد: ﴿ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ ﴾ (1) .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا﴾ (2) .

اللام في (ليوسف) لام الابتداء وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة .

أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لاشبة فيه، ولم قال (أخوه) وهم جميعا إخوته ؟لأن أمهما واحدة يوسف وبنيامين .

ولم قال (أحب) بالإفراد، والكلام على يوسف وبنيامين .

والقياس (أحبا) بالتثنية ؟

والجواب: أن (أحب) اسم تفضيل مثل أحسن وأكثر وأفضل وإذا قرن ب (من)أى أكثر من وأفضل من وأحب إليه منا، ويأتي مفردا مذكرا ولا يفرق فيه بين الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث .

تقول: أنا أكثر منك وهما أكثر منك وهم أكثر منك، وهن أكثر منك، بإفراد (أكثر) دون التأثر بما قبلها .

❁❁❁

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ (3) .

لم لم يقل: وما أنت بمصدق لنا ؟

(1) من الآية (32) من سورة يوسف .

(2) من الآية (8) من سورة يوسف .

(3) من الآية (17) من سورة يوسف .

لأن (مؤمن) لنا معناه التصديق وزيادة وهو إعطاء الأمن وهم يقصدون التصديق والأمن . أما قوله: مصدق فليس فيه الأمن . (1)

❁❁❁

وقوله تعالى: ﴿ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ ﴾ (2) نادى البشرى وهذا نداء فيما لايعقل، وهو تنبيه المخاطب . فإذا قلت: ياعجباً فكأنك قلت: اعجبوا . فكأنه قال: ياقوم أبشروا . (3)

ويا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك، ونداء البشرى تبشير لمن حضر وهو أوكد من قولك: تبشرت .

هذا يسميه علماء اللغة: وضع النداء موضع التعجب كقوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ (4) أي فيالها من حسرة لأن الحسرة لا تنادى وإنما ينادى الأشخاص ولكن المعنى على التعجب . كقوله: ﴿ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَا فَرَّطتُ﴾ (5) أي أن الحسرة لو كان يصح نداؤها لكان هذا وقتها .

❁❁❁

قوله تعالى: ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ۝ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ

(1) الكشاف 253/1 .

(2)من الآية (19) من سورة يوسف .

(3) البرهان 353/3، والكشاف 308/2 .

(4) من الآية (30) من سورة يس .

(5) من الآية (56) من سورة الزمر .

وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ[١] ﴾. فألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها وكان في الدار ورآها من حيث لا تشعر، وقيل طفل تكلم في المهد وهو الأصح لتكون أوجب للحجة وأوثق لبراءة يوسف . ولكن الشاهد قدم أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف ؛ إزاحة للتهمةعنه وأراد ألا يكون هو الفاضح لها . وكان الشاهد واثقا من أن انقطاع قميصه كان من دبرو بأن الأمارة الثانية هي الصحيحة فلا يضره تأخيرها وتقديم أمارتها الكاذبة حتى لا يقال إن الشاهد أراد إثبات خيانتها من أول الأمر فأخر براءة يوسف دفعا للتهمة عنه،وهذا السر اللطيف هو نفسه ماجاء في مؤمن آل فرعون في قوله: ﴿ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ [٢] ﴾ فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة عنه وهو واثق بأن القسم الثاني هو الصدق والواقع فلا يضره تأخيره في الذكر لهذه الفائدة العظيمة. ومن ثم قال: ﴿ يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ ولم يقل: كل مايعدكم ؛ تعريضا بأنه معهم على موسى وأنه حريص في الظاهر على أن يبخس موسى حقه . ومثل ذلك في القرآن تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه وبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه، لأنه لو بدأ بوعاء أخيه لظنوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية في رحل أخيه .[٣]

❀❀❀

(١) الآية (٢٦ –٢٧) من سورة يوسف .

(٢) من الآية (٢٨) من سورة غافر .

(٣) الكشاف ٣١٣/٢ .

قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [١] الضمير في (إنه) عائد على قولها: ﴿ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا ﴾ [٢] أو عائد على طمعها في يوسف وإنما استعظم كيد النساء والكيد واقع من الرجال أيضا إلا أن النساء أشد كيدا وأعظم حيلة وبذلك يغلبن الرجال . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ[٣] ﴾وفيه من الرجال أيضا من ينفث في العقد ولكنه خص النساء بالذكر .

أما قول بعض الناس إن كيد النساء أعظم من كيد الشيطان لأن الله يقول: ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [٤] وقال: ﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ فأنا لا أقر هذا القول ؛ لأن الآية التي ذكر فيها كيد الشيطان وهي: ﴿ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [٥] أي ضعيف بالنسبة إلى كيد الله، مثل (ومكروا ومكر الله) ولأن الكيد الواقع من النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته فلا يتصور أن يكون كيد النساء أعظم من كيد الشيطان .

❀❀❀

(١) من الآية (٢٨) من سورة يوسف .

(٢) من الآية (٢٥) من سورة يوسف .

(٣) الآية (٤) من سورة الفلق .

(٤) من الآية (٧٦) من سورة النساء .

(٥) من الآية (٧٦) من سورة النساء .

وقوله تعالى: ﴿وجاءوا أَبَاهُمْ عِشَاء يَبْكُونَ[١]﴾ أي ليلاً . وإنما جاءوا عشاء ليكونوا أقدر على الاعتذار في الظلمة فإن الحيـاء في العينين، والاعتذار بالنهار من الذنب قد تتلجلج فيه. [٢]

❀❀❀

وقوله تعالى: ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [٣] بخس أي مبخوس يعني منقوص ولم يكن قصد إخوته ما يستفيدون من ثمنه وإنما كان قصدهم ما يستفيدونه من خلو وجه أبيهم منه ولذا قال (دراهم معدوده) أي قليلة يمكن عدها وهي دراهم لم تبلغ حدا لكي توزن لقلتها وذلك لأنهم كانوا لا يزنون ما دون الأوقية وهي أربعون درهما . [٤]

وقوله تعالى: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ[٥]﴾ لما قال (كيدهن) والكيد وقع من امرأة العزيز حين راودته عن نفسه فلم جمع وقال كيدهن ؟ قد يكون كيد النسوة اللاتي رأينه لأنهن أمرنه بمطاوعة امرأة العزيز فأصبحن يشاركن في الكيد . وقيل طلبت كل واحدة من النسوة أن تخلو به على حدة وتدعوه لنفسها فصرن جماعة فقال: كيدهن. وقد يكون

---

(١) من الآية (١٦) من سورة يوسف .

(٢) القرطبي ٣٣٧٣/٤ .

(٣)من الآية (٢٠) من سورة يوسف .

(٤) القرطبي ٣٣٨٥/٤ .

(٥) من الآية (٣٣) من سورة يوسف .

من أسرار النظم القرآني
آيات وعبر

كيد امرأة العزيز لما كان كبيرا كنى عنه بخطاب الجمع لتعظيم كيدها فكانه كيد النسوة جميعاً. [١] .

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ بحذف حرف النداء، لأنه منادى قريب منه في محل الحدث وفيه تقريب له وملاطفة واسترضاء له لسكوته وإعراضه عما حدث من امرأة العزيز. [٢]

والقائل لذلك قيل الشاهد، وقيل زوجها الملك ولم يكن غيوراً فلذا كان ساكنا أو أن الله سلبه الغيرة على زوجته لطفا بيوسف .

❀❀❀

قوله: ﴿إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ [٣]﴾أي من القوم المتعمدين للذنب . يقال خطئ إذا أذنب متعمدا، أما أخطأ فهو للذنب غير المتعمد .

وقال: من الخاطئين بالتذكير والقياس: الخاطئات . [٤]

تغليبا للذكور على الإناث، مثل قوله: وكانت من القانتين، ومثل: "إنها كانت من قوم كافرين " والمعنى: إنك كنت من الناس الخاطئين .

❀❀❀

---

(١) القرطبي ٣٤١٤/٤.

(٢) الكشاف ٣١٥/٢ .

(٣) من الآية (٢٩) من سورة يوسف .

(٤) الكشاف ٣١٦/٢ .

قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ ﴾[1] .

كيف تأسف على يوسف دون أخيه ؟

قيل: هو دليل على تمادى أسفه على يوسف، وهو الأسف القديم الممتد وهو أصل المصيبة عنده التي ترتبت عليها المصائب بعد ذلك . فكان الأسف على يوسف هو أسف على من لحق به .[2]

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾[3]

انظر إلى جمال التعبير بقوله (رَاوَدَتْه)،أي المطالبة برفق مرة بعد مرة، وتكرار المرأة المحاولة معه،وممانعته من ذلك. كأنها تفعل ما يفعل المخادع لصاحبه ليأخذ منه ما لايريد إخراجه من يده،يحتال ليأخذه منه، و(راود) هنا لايدل على المشاركة وإنما هو مثل: داوي وسافر وعاين وداين وباعد وجاوز .فهي مفاعلة من جانب واحد، نحو مطالبة الدائن، ومداواة الطبيب .فإن الطبيب يداوي من جانبه . ولكن لما كان المرض صادراً من جانب المريض . فصار السبب من جانب آخر .فكأن المداواة صادرة عنهما .

وتأمل الجمال قي قوله: ﴿ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ فلم يذكر اسم المرأة سترا وعفافا مع أنها تستحق الذكر لتكون عبرة . وإنما أتى بالاسم الموصول وقال: {هُوَ فِي بَيْتِهَا } وكونه في بيتها غريبا عن أهله ووطنه، وهو شاب

(١) من الآية (٨٤) من سورة يوسف .

(٢) الكشاف ٢/٣٣٨.

(٣) من الآية (٢٣) من سورة يوسف.

عزب وله شهوة . والشاب المقيم بين أهله ووطنه يستحي أن يقع منه عيب.فإذا صار غريبا زال هذا المانع عنده، وكون يوسف في صورة المملوك، والعبد ليس مثل الحر. وكانت هي في بيتها وهو بيت السلطان والقوة ويدل ذلك على الجرأة حيث سعت إلى فتى تربي في بيتها وعاش في كنفها . ويضاف إلى ذلك الرغبة التامة منها .وزاد مع ذلك تغليق الأبواب لتأمن مفاجأة الداخل عليها بغتة، وأتته بالرغبة والرهبة ومع هذا كله عف لله ولم يطعها .

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾[1].

لم يكشف يوسف للملك على القصة ولا أوضحها له، لأن السؤال مجملا يهيج الملك على الكشف والبحث والاستعلام مما يحصل البراءة ليوسف[2] عليه السلام، وكان هذا القول من يوسف دالا على أناة وصبر وطلبا لبراءة الساحة وخشى أن يخرج من السجن وينال عطفاً من الملك فيراه الناس بعين الشفقة فأراد أن ينظر في أمره .هل سجن بحق أو بظلم وحينئذ يخرج من سجنه مرفوع الرأس لا بقرار عفو من الملك .

قوله تعالى: ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ﴾[3].

(١) من الآية (٥٠) من سورة يوسف.

(٢) الكشاف ٢/٣٢٦.

(٣) من الآية (٣٠) من سورة يوسف.

عبر بقوله شغفها للدلالة على عمق الحب في قلبها لأن الشغاف هو حجاب القلب، ويسمى سويداء القلب وقيل الشغاف جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب أي أن حبها ليوسف خرق شغاف قلبها حتى وصل إلى الفؤاد .(١)

أي أن الحب قد ذهب بها كل مذهب، وقريء (شعفها) بالعين أي أحرق حبه قلبها وتركها مشعوفة .

❊❊❊

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ (٢)

قالت (فذلكن) وبالإشارة إلى البعيد،ولم تقل هذا وهو قريب منها وحاضر ؛ وذلك رفعا لمنزلته في الحسن، واستحقاق أن تحبه وتفتن به كأنها تقول للنسوة هو ذلك العبد الذى ترين صورته ألا يستحق هذا الافتتان، فهي أشارة بقولها (فذلكن) لبعد منزلته، وهذا كما جاء في أول البقرة (الم ذلك الكتاب) فجعل الإشارة إليه بـ (ذلك) لبعد منزلته بالنسبة إلى كتب الله تعالى (٣)

❊❊❊

قوله تعالى: ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ (٤)﴾

لماذا لم تصرح بذكر (يوسف) ؟

(١) البحر المحيط ٥/٣٠١، اللسان (شغف)

(٢) من الآية (٣٢) من سورة يوسف.

(٣) الكشاف ٢/٣١٨.

(٤) من الآية (٢٥) من سورة يوسف .

لأنها قصدت العموم أي أن كل من أراد بأهلك سوءا فحقه السجن أو العذاب وذلك أبلغ في تخويف يوسف،أو أنها أظهرت بهذا الإجمال الحياء والحشمة أن تقول لزوجها: هذا أراد بي سوءا وهو مبالغة في المكر والكيد وإبعاد التهمة عنها لكي توحي لزوجها بالعفة والطهر وهذا فرق كبير بينها وبين ابنة شعيب حين تمدح موسى في قولها: ﴿ يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (١) ولم تقل: إنه قوي أمين تقصد موسى ؛ وذلك حياء من التعيين وحشمة وأدبا، فالباعث على ذلك عندها هو الحياء . أما امرأة العزيز فالباعث عندها التكلف والمكر والحيلة والكيد . (٢)

❊❊❊

قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ ﴾ (٣) .

يقال: أحسن إليه وبه وكذلك أساء إليه وبه .

فلم قال في الآية (أحسن بي) ؟

الجواب: لأنه الأليق بيوسف ؛ لأنه إحسان درج فيه يوسف وقد تعدد الإحسان ولم يكن إحسانا واحدا . فالإحسان متصل ليس له غاية . فالباء تدل على الإلصاق أي أن الإحسان التصق به وتكرر غير مرة فصار ملازما له .(٤)
وتسمى باء الغاية، أي وصل إلى غاية الإحسان .(٥)

(١) من الآية (٢٦) من سورة القصص .

(٢) الكشاف ٢/٣١٣.

(٣) من الآية (١٠٠) من سورة يوسف .

(٤) البرهان ٤/١٧٦ .

(٥) البصائر ٢/١٩١ .

ولماذا قال: إذ أخرجني من السجن، ولم يقل أخرجني من الجب مثلا مع أن نعمة الإخراج من الجب أعظم من الإخراج من السجن، وذلك لئلا يجرح إخوته ويذكرهم بفعلتهم الشنيعة حين ألقوه في الجب .

والكريم يعفو في وقت الصفاء، وأيضا لأن السجن كان باختياره فكان الخروج منه أعظم بخلاف الجب ولأنه خرج من الجب إلى الرق، وخرج من السجن إلى الملك، والنعمة هنا أوضح،وأيضا قصر المدة في الجب وطول المدة في السجن، وأيضا الجب كان في حال صغره ولا يعقل ما حدث فيه ولا يؤثر في النفس مثل تأثيره في الكبر، وأيضا وضع في الجب من أجل الحسد ووضع في السجن لأمر هو منزّه عنه فأثر في نفسه فكان الإخراج من السجن منتهى الإحسان .[1]

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ [2]

لم سجن يوسف وقد ظهرت علامات براءته . وهي قد القميص من دبر، وشهادة الشاهد من أهلها، وقطع الأيدي وإعظام النساء إياه .

الجواب: أنهم رأوا سجنه كتمانا للقصة ألا تشيع في العامة وللحيلولة بينها وبينه.[3]

---

(١) البرهان ٦١/٤، ٦٧/٣.

(٢) من الآية (٣٥) من سورة يوسف .

(٣) القرطبي ٣٤١٥/٤.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ﴾ [1]

حسن تكرار لفظ (الوعاء) مع أن الأصل أن يقال: ثم استخرجها منه ؛ لتقدم ذكره ؛ لأنه لو قيل ذلك لأوهم عود الضمير على الأخ فيصير الأخ مطلوبا لخروج الوعاء . وليس كذلك فأعيد لفظ الوعاء لهذا السبب، وأيضا السر اللطيف في أنه بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه لنفي التهمة عنه حتى لا يظنوا أنه يقصد فضحهم من أول الأمر فأخر أوعيتهم لنفي الشك عنه .[2]

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿وَجَاء إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [3]

كيف عرفهم وهم لم يعرفوه؟

لم يعرفوه لطول العهد، ومفارقته إياهم في سن الحداثة ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولقلة فكرهم فيه ذهب عن خيالهم، ولتغير حاله من الملك والسطان عن حاله التي فارقوه عليها طريحا في البئر، حتى لو تخيلوا أنه هو لكذبوا أنفسهم، وقيل رأوه على زي فرعون مصر فما خطر ببالهم أنه هو، وقيل رأوه من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب حيث يقف طلاب الحوائج أمام الملك،

---

(١) من الآية (٧٦) من سورة يوسف .

(٢) البرهان ٤٨٩/٢، الكشاف ٣٣٥/٢

(٣) الآية (٥٨) من سورة يوسف .

ويوسف عرفهم لأنه رأى زيهم قريبا من زيهم حينذاك، ولأنه كان مشغولا بهم وبمعرفتهم فكان يتأمل ويتفحص .

وقال: فعرفهم أي بمجرد رؤيتهم أي بلا مهلة فجاء بالفاء للتعقيب [1] .

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴾ [2] .

قوله (أذّن) بالتضعيف يفيد التكثير أي أنه نادى مرارا . وهنا سؤال لم وصف إخوته بالسرقة وهو يعلم أنهم براء ؟

والجواب: أنهم كانوا قد سرقوه من أبيه فألقوه في الجب ثم باعوه، فاستحقوا الوصف بالسرقة وصدق إطلاق ذلك عليهم، أوأن يوسف أراد أيتها العير حالكم حال السارقين أي إن شيئا لغيركم صار عندكم من غير رضا الملك ولا علمه وهو الصواع، أو أن ذلك كان حيلة لاجتماع شمله بأخيه وهذا بناء على أن بنيامين لم يعلم بدس الصواع في رحله [3] .

❀❀❀

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاالله تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ [4] .

---

(١) الكشاف ٢/٣٣٠ .

(٢) من الآية (٧٠) من سورة يوسف .

(٣) القرطبي ٤/٣٤٦٠ .

(٤) الآية (٨٥) من سورة يوسف .

عبر إخوة يوسف لأبيهم عن حاله التي كان عليها بقولهم (حرضا) وهذا اللفظ يوحي بكل ما ألم بيعقوب وهو التلف، والفساد في الجسم والعقل، وكونه في أرذل العمر، وهو يابس الجلد على العظم وذائب من الهم والهلاك، وكل المعاني متقاربة تدل على وصف يعقوب في هذه الحالة وأصل الحرض الفساد في الجسم والعقل من الحزن أو العشق أوالهم ولفظ (حرض) لا يثنى ولا يجمع .وحكى أهل اللغة: أحرضه الهم أي أسقمه ؛ ورجل حارض أي أحمق، وغرضهم من ذلك منع يعقوب من البكاء والحزن وإن كانوا هم السبب في ذلك [1] .

ومن جمال اللغة أن التحريض على شيء هو الحث عليه ففي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ﴾ [2]

أي حثهم عليه بالتزيين وتسهيل الأمر فيه .كأنه في الأصل إزالة الحرض أي إزالة الخوف والهلاك . كما تقول: مرّضت فلانا أي أزلت مرضه، وقذّيته أي أزلت عنه القذى . فالتحريض هو إزالة الحرض [3] .

❀❀❀

---

(١) القرطبي ٤/٣٤٧٩ .

(٢) من الآية (٦٥) من سورة الأنفال.

(٣) البصائر ٢/٤٥٢ .

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع — الصفحة

الموضـــــوع — الصفحة

الموضـــــوع — الصفحة

من أسرار النظم القرآني
آيات وعبر

الموضـــــوع — الصفحة

